المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
بالرباط



سلسلة : دراسات (3)

مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية

(هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)

أحمد الشكري
معهد الدراسات الإفريقية

966
S5

منشورات معهد الدراسات الإفريقية
1997

مملكة غانة وعلاقتها
بالحركة المرابطية
(هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
منشورات معهد الدراسات الإفريقية
بالرباط



سلسلة : دراسات (3)

مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)

أحمد الشكري
معهد الدراسات الإفريقية

1997

عنوان الكتاب :

مملكة غانة وعلاقتها
بالحركة المرابطية
(هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)

الناشر : معهد الدراسات الإفريقية

سلسلة : دراسات

حقوق التأليف : معهد الدراسات الإفريقية ـ الرباط

التصفيف : مختبر الإعلاميات لمعهد الدراسات الإفريقية (سعيدة بلمقدم بإشراف تيم عائشة)

السحب : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء

الطبعة الأولى : 1997

الإيداع القانوني : 97 / 666

ردمك : 9991 ـ 37 ـ 010 ـ X

تقديـــم

إمكانية التأريخ مرتبطة بتوفر الوثائق المكتوبة أو / والآثار المنقب عنها مصحوبة بأوصاف أهل الفن وتعاليقهم على مستويات العثور عليها ومواقعها، ومرتبط أيضا بكل هذه الشواهد التي لا تفتأ تنضاف لتوسيع مجال المؤرخ، وتعقد في نفس الوقت مهمته إذا نظر إليها من جهة الأسئلة المتخصصة على آثار لها مختصون.

والتأريخ لبلاد السودان (إفريقيا الغربية في العرف المغربي) في ما نسميه بالقرون الستة الأولى للمغرب الإسلامي تجنبا لمصطلح العصر الوسيط، أمكن بفضل ما أنتج من نصوص في سياق نشاط علائق دول المغرب واهتمامها، بما في ذلك الاهتمام الأندلسي والمتوسطي عامة، بهذه البلاد السودانية لأهميتها في التجارة ولما استتبعه ذلك الاهتمام من التأثرات الثقافية المتبادلة ولا سيما انتشار الاسلام وآلياته الحضارية هنالك، وتزايد التمازج البشري.

ونصوص الجغرافيين في وصف هذه البلاد معروفة، ولا يبلغ قدر فائدتها شيء بالنسبة للتأريخ لذلك العصر، وأخبار الحوليات التاريخية الأولى صدى لتلك العلائق في أسلوب هذه الحوليات عند إدراج الأحداث السياسية في جفافها المعهود.

اشتغل المؤرخون العصريون من خارج المغرب ومن خارج بلاد السودان (من السنغال إلى نجيريا) على هذه النصوص وما وصفته من علاقات مع المغرب، وجاءت نتائج أبحاثهم غير خالية في بعض الأحيان من التأثر بروح السياق الاستعماري.

اشتغل على هذه النصوص أيضا، وكأنها الكلمات التي لا تنفذ، المؤرخون الوطنيون في بلدان إفريقيا العصرية، وناءت في بعض الأحيان بثقل العواطف المرتبطة بحمأة إرادة التحرر من كل شيء حتى من التاريخ، واختلط الحابل بالنابل من حيث المقاصد بين الفئتين المذكورتين ووقع الالتقاء في بعض الاستنتاجات فيما يخص دور المغرب بهذه البلدان وعلاقاته بها.

والتأريخ حوار ووجهات نظر تتكامل إذا روعيت الموضوعية التي هي المعرفة بالنصوص وقواعد المهنة في المقابلة والتأويل واستفراغ الجهد في اعتبار كل الشواهد مع تجنب التكلف والتقعر والإقحام.

في نقطة من هذا الخط يأتي عمل أحمد الشكري الذي يبرهن، وهو في عمر الشباب، على حس تاريخي كهل وعلى جدية في طرح الأسئلة دون أن يحيد قيد أنملة عن النصوص إلا بقدر ما يسمح به التجديد المطلوب في الفهم المستوعب للعلاقات بين إشارات هذه النصوص وما عسى أن يكون المسكوت عنه فيها. فعمله هذا وأعمال أمثاله من هذه الفئة المتخصصة في علاقاتنا بإفريقيا جنوبي الصحراء يملأ فراغا وموقعا من أجل ملئه أنشئ معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس، وصواب هذه القضية لَمَسْناه بما لا يدع مجالا للشك في ردود فعل زملائنا الباحثين والمهتمين في هذه البلدان وخارجها في أوساط هيئات البحث حول إفريقيا.

أحمد التوفيق
الرباط في 6 ماي 1997

مقدمـــة

شكلت مملكة غانة أول تنظيم سياسي عرفته بلاد السودان خلال العصر الوسيط. وإذا كنا نجهل الشيء الكثير عن أصولها التاريخية، فإن الشهادات العربية في زمن أبي عبيد البكري ثم الشريف الإدريسي، استطاعت أن تنتشلها من أعماق التاريخ المظلم والغامض إلى حيّزه المضاء. الشيء الذي مكننا من الوقوف على بعض التطورات التي عرفتها المملكة خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة (11 ـ 12م).

وبعد أقل من عشر سنوات على وصف أبي عبيد البكري (460هـ / 1068م) لأحوال المملكة ومظاهرها المثيرة، أعلن الباحثون ـ رسميا ـ عن سقوط مملكة غانة في يد المرابطين. وبذلك، تم إجهاض أول تجربة سياسية سودانية متطورة على يد صنهاجة اللثام المسلمين سنة 469هـ / 1076م!

وكالعادة، فقد اتخذت الأدبيات التاريخية الاستعمارية من هذا الحادث المصطنع، علامة ومؤشرا على مدى سلبية تجربة الاسلام ببلاد السودان. ولإحكام بناء تصورها، لم تجد غضاضة في اغتيال تاريخ مملكة غانة وإمارة تكرور السودانيتين بعد الغزو المزعوم، كما أنها لم تتردد في اتهام الإدريسي في كفاءته الجغرافية، لمجرد أنه تجرأ على تقديم شهادات منافية لمزاعمها. وفي نفس السياق، تمّ قلب وتشويه الكثير من الحقائق والوقائع المتعلقة بالحركة المرابطية وعلاقتها ببلاد السودان.

واللافت للنظر بهذا الخصوص، أن البناء التاريخي والنظري لأطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة، ظل يتطور ويترسخ ـ بفعل تزكية الرواد من المختصين ـ إلى أن استحكم بنيانه، وأصبح الاحتماء به لا يثير أدنى قلق لدى الغالبية العظمى من الباحثين والدارسين حتى وقتنا الراهن.

وعلى الرغم من الشكوك التي أبداها أحد الإفريقانيين حول القضية منذ ما يزيد عن عقدين من الزمن، ودعوته إلى إعادة النظر فيها، فإن الكثير من

الدراسات العربية والأعجمية، ماتزال مخدرة بسحر وسلطة الرأي السائد. وحتى بالنسبة لتلك التي وصلها صدى هذا الشك، فقد وجدت نفسها حائرة ومضطربة أثناء تناول واقعة الغزو، وفي أحسن الأحوال نجدها تتجاهل القضية برمتها حتى لا تورط نفسها. لكن هل يمكننا الكلام عن الدولة المرابطية دون الحديث عن معركة الزلاقة وماترتب عنها من أوضاع مستجدة على جميع المستويات؟

إن معالجة أطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة والحيثيات المرتبطة بها، تصطدم بإكراهات قاهرة سواء على المستوى المنهجي أو الموضوعي، ناتجة أساسا عن قلة المادة المصدرية المتوفرة وفقرها الفظيع.

ونرى أن متابعة المشكل الحقيقي في القضية، ينبغي ألا يقف عند نفي الواقعة أو مصادرة اللعنة التي لاحقت روايات الشريف الإدريسي عن بلاد السودان، وإنما تحتم علينا كذلك وقبل كل شيء، تجاوز النظرة السطحية والوقائعية لتطورات الحركة المرابطية في مرحلتها الصحراوية، واستكناه طبيعة علاقة الحركة بمملكة غانة وبلاد السودان بصفة عامة.

وباصطناع هذا التوجه، وحتى لو ظهرت وثائق جديدة تشهد على صحة الغزو المرابطي، يصبح الكلام عن الواقعة في سياق التفاعلات الخصبة والإيجابية التي عرفتها العلاقات المرابطية السودانية، مجرد حادث منعزل وجزئي، لم يكن له أي أثر سلبي على التجارة بين ضفتي الصحراء.

كيف تتداول الدراسات والأدبيات التاريخية قضية نشوء مملكة غانة؟ وماهي الأبعاد التاريخية لوصف البكري ثم الإدريسي لأحوال المملكة فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف السادس للهجرة؟ وماهي طبيعة علاقة الحركة المرابطية بمملكة غانة وبلاد السودان بصفة عامة؟ وأخيرا، هل توافقنا الشهادات المصدرية المتوفرة على الانهيار المزعوم لمملكة غانة على يد المرابطين سنة 469هـ / 1076م؟

الفصـــــــل الأول

I مملكة غانة بين التصورات التاريخية والشهادات المصدرية

1 ـ الموقع وإشكالية النشأة

باستقراء ومقارنة المعطيات التي تطرحها المصادر العربية والرواية الشفوية، تمكن الباحثون من تحديد الإطار الجغرافي العام لمنطقة "أوكار" التي تقوم عليها مملكة غانة.[1] وقد تم توطين المنطقة فيما بين روافد نهر السنغال غربا وروافد نهر النيجر شرقا ؛ وعلى حدودها الشمالية كانت تتحرك القبائل البربرية الصحراوية. وفي الفترة التي بلغت فيها مملكة غانة أوج قوتها (القرن 5 هـ / 11 م)، تمكنت من مد نفوذها جنوبا لكنها لم تلامس قط مقدمة الغابات الاستوائية.

إنها حدود تقريبية لمنطقة أوكار، أي مجال انتشار شعب السراكولي حاليا. وتجدر الإشارة هنا، أن الحدود السياسية الخاضعة لسلطة الملك الغاني خلال القرن الخامس الهجري (11م)، كانت دون الحدود الإثنية مساحة.

وفيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس للهجرة، لحقت الحدود السياسية تغييرات جوهرية، كان من بين إفرازاتها، اقتطاع مساحات هامة خاصة في الجهة الشمالية الغربية، تكاد تعادل نصف المساحة التي رسمها

---

1 ـ ترجع أول إشارة لغانة في المصادر العربية إلى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (8م)، حيث أشار إليها الفلكي الفزاري، ثم تلاحقت بعد ذلك الشهادات المصدرية العربية لكنها كانت فقيرة في مضمونها. ولن نتمكن من التعرف على غانة إلا مع البكري وهو يرسم مسالكه وممالكه سنة 460هـ / 1068م. وأول ما يوضحه لنا جغرافينا، هو أن اسم غانة يطلق على عاصمة المملكة، كما أنه يمثل لقبا للملك، وأن اسم البلاد أوكار.
وفي محاولة لتفسير مصطلح "غانة"، يقول ج. ت. نيان : "إن غانة تعني في لغة الماندينغ : الرجل القوي الذي يتمتع بقدرات خارقة". انظر :
ـ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت، الجامعة اللبنانية، 66 ـ 1979، ج2، ص 377.
ـ البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك. باريس، ميزونوف، 1965. [حققه وترجمه للفرنسية : دوسلان] ص 184.
- Niane D. T., Le Soudan Occidental au temps des grands empires, XIè-XVIè siècles. Paris, Présence Africaine, 1975. p.4 et 34.

ريموند موني (R. Mauny) لمملكة غانة.[2] وفي المقابل، امتدت الحدود الشرقية للمملكة، وأصبحت تغطي الثنية الأولى لنهر النيجر.[3]

وعلى الرغم من أن الدراسات التاريخية والأركيولوجية لم تهتد بعد إلى قول حاسم في تحديد موقع عاصمة المملكة، فإن جلها يجنح نحو مطابقة مدينة غانة العاصمة بمدينة قومبي صالح، التي توجد حاليا جنوب شرق موريطانيا.[4]

لا نعرف على وجه الدقة، تاريخ نشأة مملكة غانة، ولا مؤسسيها الأوائل، غير أن الروايات التاريخية التي أوردها كل من محمود كعت في **تاريخ الفتاش** وعبد الرحمن السعدي في **تاريخ السودان**، فضلا عن الرواية الشفوية المحلية، شكلت منطلقا لعدد من التأويلات والتصورات، أشهرها تلك التي اقترحها موريس دولافوس (M. Delafosse) وطورها فيما بعد ريموند موني (R. Mauny).

يعتقد دولافوس أن المؤسسين الأوائل لمملكة غانة، هم بيض من أصل سوري يهودي، نزحوا في منتصف القرن الثاني للميلاد من ليبيا إلى منطقة أوكار في إطار هجرات سلمية، جاءت نتيجة الاضطهاد الروماني لهم. وبعد استقرارهم بجانب السكان الأصليين (قبائل السوننكي)[5]، استطاعوا استيعاب عاداتهم،

---

2 ـ انظر الخريطة رقم 2. ص33. وقارن معطياتها بما جاء عند ريموند موني في كلامه عن الحدود :

Mauny R., - Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen-âge. Mem. de l'IFAN. B., N°61, Dakar, 1961, pp. 509.
- Les Siècles Obscurs de l'Afrique Noire. Paris, Fayard, 1970. pp. 144-146.

3 ـ أنظر الخريطة رقم 3. ص 34.

4 ـ Mauny R., Les Siècles Obscurs.., pp. 147-148

5 ـ يؤكد مؤرخا تنبكت محمود كعت وعبد الرحمن السعدي، أن ملوك غانة الأوائل هم بيضان في الأصل. أنظر :

ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. أنجي : بريدن، 1913 [حققه وترجمه للفرنسية : هوداس ودلافوس] ص 42.

ـ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان. أنجي : بريدن، 1898. [حققه وترجمه للفرنسية : هوداس وبنوه] ص 9.

وتكيفوا مع تقاليدهم، ثم أخذوا تدريجيا في بسط نفوذهم إلى أن أصبحوا الأسياد الحقيقيين للبلاد. وبعد ذلك، تم لهم تأسيس مملكة غانة حوالي سنة 300 ميلادية.

ويستبعد هذا التصور أن يكون الملوك الأوائل لمملكة غانة من أصل صنهاجي(6)، على أساس أنه لو كان الأمر كذلك لأكده لنا عبد الرحمن السعدي باعتباره من أبناء المنطقة. ويضيف دولافوس أن ابن خلدون الذي يعتبر من أكبر علماء أنساب البربر، لم تكن لتفوته هذه المسألة، إذ لو صح انتسابهم لصنهاجة، لسجله لنا في معرض حديثه عن غانة. لكن صاحب العبر لم يشر إلى القضية واكتفى بنفي ما أثبته الإدريسي بخصوص انتساب ملوك غانة لعلي بن أبي طالب.(7)

ويسترسل دولافوس في تفسيراته موضحا، أن هذه الأسرة البيضاء السورية اليهودية قد استمرت في الحكم إلى نهاية القرن الثامن الميلادي، حيث تمكنت وقتئذ أسرة سوننكية سوداء من السيطرة على الحكم، مستفيدة من الأوضاع المضطربة التي بدأت تعرفها البلاد آنذاك، ومستعينة بكثرة الجيوش التابعة لها.

= أما السكان الأصليون فيسميهم عبد الرحمن السعدي (ص 9) وعكريون. وحسب دولافوس وهوداس، فإن صاحب تاريخ الفتاش حينما يستعمل نفس الإسم (أي وعكري)، فإنه يقصد به قبائل السوننكي. أنظر التعليق رقم 3 في صفحة 5 من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش.

6 ـ المصادر العربية بما فيها السودانية، تنعت البربر المنتشرين في الصحراء الكبرى ب "البيضان" تمييزا لهم عن السودان. وبما أن مؤرخي تنبكت يؤكدان أن ملوك غانة الأوائل هم بيضان، فإن دولافوس أثار مشكلة انتسابهم لصنهاجة.

7 ـ ابن خلدون، كتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (العبر). بيروت، دار الكتاب اللبناني، 56 ـ 1961. المجلد 5، ص 931.

ـ الادريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس : مأخوذ من كتاب : *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (النزهة). ليدن : بريل، 1968. [حققه دوزي ودي كوجي]. ص 6.

مع هذا الانقلاب، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مملكة غانة، تميزت بسعي القيادة السوداء إلى توسيع مناطق نفوذها على حساب الجيران.[8]

وقد استمرت نظرية دولافوس هاته تمارس تأثيرها على الدراسات التاريخية لعشرات من السنين، ثم أخذت تدريجيا تفقد جاذبيتها مع تطور الأبحاث الأركيولوجية ؛ كما أن خلفيتها السلبية، التي تجعل الإنسان السوداني[9] عاجزا عن تحقيق أي مكسب حضاري دون تأثير عميق من الخارج، دفع الباحثين إلى تهميشها على اعتبار انتماء مثل هذه النظريات للخطاب التاريخي الاستعماري : فالسوداني - شأن البربري في الكتابات الاستعمارية - سلبي، غير أصيل فيما ينتجه، دائما في حالة انفعال، قاصر عن المبادرة والإبداع.

وتجنح جل الدراسات حاليا، إلى رفض مثل هذه التصورات والطروحات، مكتفية بالتأكيد على الأصل السوداني لحكام غانة الأوائل، أو ترديد رأي محمود كعت في القضية : "وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم [حوالي عام 926 هـ / 1519م] أن يأتي بصحة شيء في أمورهم يقطع بها ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه".[10]

---

8 - انظر :

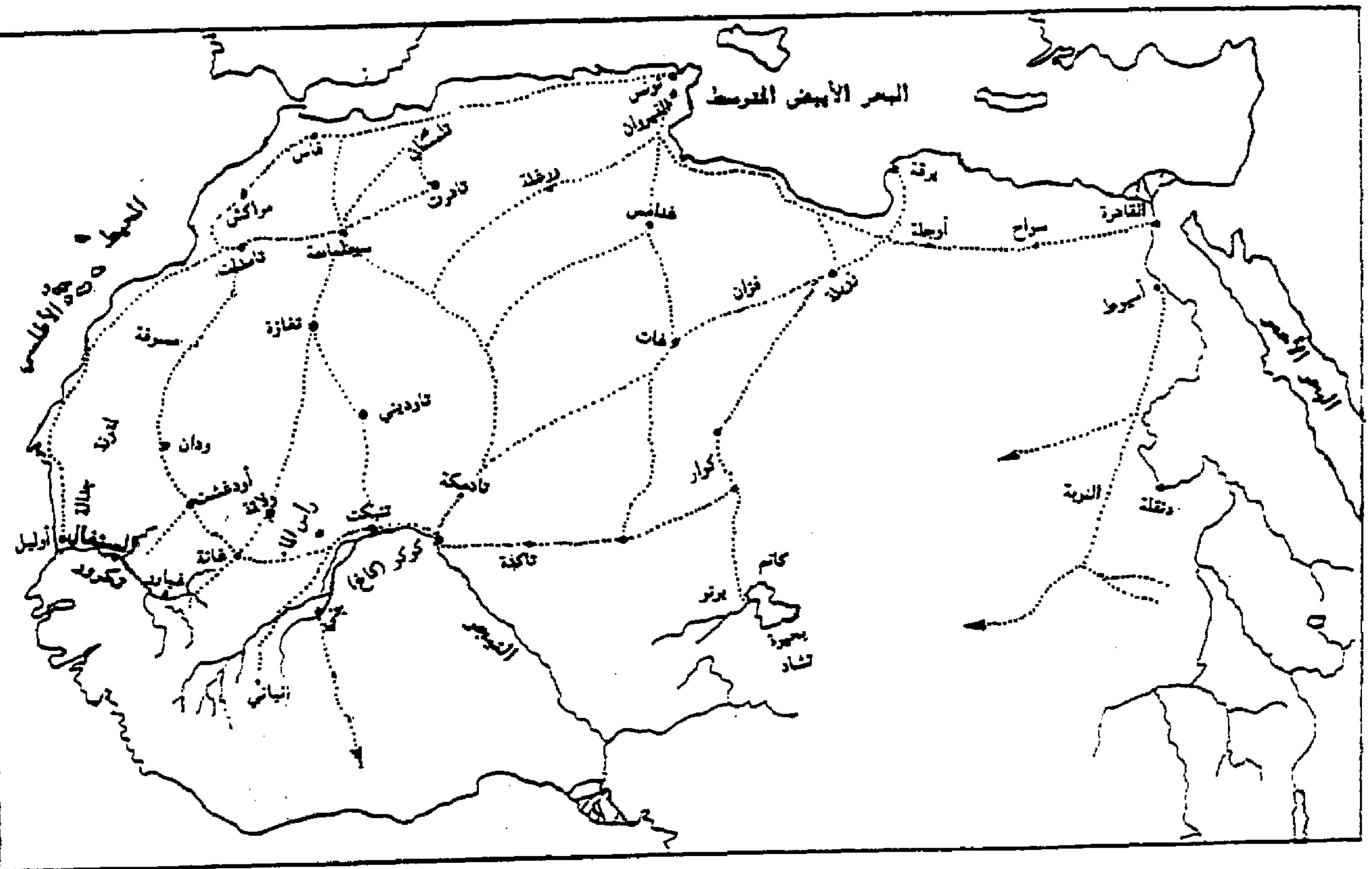
Delafosse M., Haut-Sénégal-Niger. Paris, Maisonneuve et Larose, Nouv. Ed., 1972. TI., pp. 207-226, T. II., pp. 22-25.

وتجدر الإشارة إلى أن دولافوس عند إصداره لمؤلفه هذا عام 1912، لم يكن *تاريخ الفتاش* متوفرا إذ ذاك، ذلك أن تحقيقه لم يتم إلا بعد سنة من ذلك. وعلى الرغم من أن دولافوس شارك في تحقيقه عام 1913، فقد تمسك بنظريته حول أصل ملوك غانة الأوائل. انظر التعاليق المتوفرة في الترجمة الفرنسية لـ *تاريخ الفتاش*، رقم4. ص 42، ورقم1. ص75، ورقم 2 - 3. ص 78.

9 - تقول "السوداني" نسبة لبلاد السودان. وهذه المنطقة يطلق عليها كذلك "بلاد التكرور" أو "السودان الغربي" أو "غرب إفريقيا". ونقصد بمجموع هذه الاصطلاحات، المجال الممتد فيما بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا، شمال نطاق الغابات الاستوائية وجنوب الصحراء الكبرى. وحسب خطوط العرض فإن بلاد السودان تنحصر فيما بين خطي عرض 11° و17° شمالا.

10 - *تاريخ الفتاش*، ص 42.

خريطة رقم 1



المحاور التجارية فيما بين القرن 10 و 16 م

ونظرا لتهافت تصور دولافوس، وحساسية خلفيته المثيرة للقلق والانزعاج، لم يعد الدارسون يأبهون به، ومنهم من لم يكلف نفسه عناء الالتفات إليه أو حتى الإشارة له. وقد عبر عن هذا الموقف بكل وضوح يوسف كيوك (J. Cuoq)، وذلك حينما تجاهل كل ما قيل عن نشأة مملكة غانة، مؤكدا بذلك، تداعي التصور المطروح، ومشككا ـ ضمنيا ـ في مصداقية الرواية الشفوية بهذا الخصوص[11].

وبعد قرابة نصف قرن من تأليف دولافوس، طلع علينا ر. موني (R. Mauny) بأطروحة تلقي بعض الضوء على قضيتنا (نشأة مملكة غانة)، لكن من زاوية مغايرة وفي إطار أكثر شمولية. ذلك أنه عوض أن يتساءل عن جنسية ودين ولون ملوك غانة الأوائل، مثلما فعل زميله دولافوس، تساءل عن الأسباب الجوهرية الكامنة وراء نشأة الدول السودانية خلال العصر الوسيط (غانة ومالي وسنغاي). وانتهى ـ بعد أن أغرق نفسه في تحليل المعطيات التاريخية ـ إلى ما سماه ب "الأصل العسكري للدولة السودانية"[12].

وينطلق ر. موني في تصوره ذاك من المقولة المشهورة، التي تعتبر تجاور الرحل (بربر الصحراء) والمستقرين (السودان) محكوما بعلاقة يطبعها العنف. فالبربر الرحل[13] ـ حسب زعمه ـ كانوا يغزون باستمرار السودانيين المستقرين على الحافة الجنوبية للصحراء، بهدف استعبادهم والاستيلاء على ثرواتهم. وكجواب على هذا التهديد المستمر، اضطر السودانيون لتنظيم أنفسهم في إطار نظام سياسي قوي، قادر على حمايتهم من إغارات وغزوات بربر الصحراء. من

---

11 ـ يعد كيوك من أبرز المختصين في تاريخ الاسلام ببلاد السودان خلال العصر الوسيط. ومن أهم أعماله بهذا الخصوص :

Cuoq J., Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIè siècle, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1984. pp. 40-42.

12 ـ انظر :

Mauny R., - *Tableau Géographique de l'Ouest Africain...*, 1960, pp. 218-222 et pp. 505 - 506.

- *Les Siècles Obscurs de l'Afrique Noire*, 1970, p.15 et 142.

13 ـ والمقصود بهم هنا صنهاجة الصحراء.

ثمة، ظهرت ببلاد السودان، دول ذات طابع عسكري في جوهرها. وهذه الظاهرة - يضيف موني - تسم بميسمها جميع الوحدات السياسية التي عرفتها بلاد السودان خلال العصر الوسيط، بحيث لا تدوم الدول والإمبراطوريات السودانية إلا بدوام السلطة العسكرية.(14)

حتى لا نناقش غير التاريخ :

نسجل بدءا أن أطروحة موني تستقي جذورها من كتابات دولافوس والدراسات الانثروبولوجية. وهذا التأثير، يعني في أحد جوانبه، أنه على الرغم من ادعاء الكثير من الباحثين، تهافت نظريات دولافوس، فإن قلة منهم من يتخذ مساحة حقيقية بينه وبين هيمنة سلطة نظريات دولافوس المتعلقة بتاريخ بلاد السودان.(15)

وبإمكاننا، اعتمادا على التحليل التاريخي، أن ننقض هذه الأطروحة، بيد أننا لن نكلف أنفسنا مثل هذا العناء مادام الاعتراض المنهجي كافيا لاستيفاء الغرض.

نعتقد أن الثغرة الفادحة التي ترصع تصور مؤرخنا، تتمثل في اعتقاده بأن السمة العسكرية للدولة السودانية، ظاهرة خاصة بالمنطقة المعنية دون غيرها. ولو أظهر موني استعدادا فطريا لا غير، لأدرك أن الظاهرة عامة في تاريخ المجتمعات البشرية، وليست قاصرة على دول بلاد السودان، ولأدرك أن المسألة في جملتها

---

14 - عرفت أطروحة موني هاته انتشارا وشيوعا بين المهتمين بتاريخ بلاد السودان، وممن أخذها كمسلمة بديهية :

Nicolas Guy, *Dynamique de l'Islam au sud du Sahara*. Paris , Pub. Orientaliste de France, 1981. p. 54 et 61.

15 - بعد سنة 1960 - وهي السنة التي توافق استقلال دول غرب إفريقيا الفرنسية - برز على الساحة جيل من الإفريقانيين، حاول جهد الإمكان التخلص من ضغط الكتابات التاريخية الاستعمارية، التي أنتجتها أسماء مثل : موريس دولافوس (M. Delafosse) وهوداس (O. Houdas) وروبير كورنوڤان (R. Cornevin).

تتعلق بالأنثروبولوجيا السياسية وليس بعلم التاريخ. ومن ثمة، لا نرى أي داع يدفعه لأن يقدم لنا أطروحته كقضية تاريخية.[16]

ومؤدى القول، فإن نشأة مملكة غانة ما تزال مُحاطة بالغموض، وكل ما يمكن أن نؤكده بهذا الصدد، هو أن اسمها أصبح مرسوما في المصادر العربية منذ القرن الثاني الهجري (8 م).[17]

2 ـ صنهاجة اللثام ومملكة غانة : الصراع من أجل مدينة أودغشت[18]

عند نهاية القرن الثاني الهجري تمكن صنهاجة اللثام من تكوين أول حلف سياسي لهم، بزعامة يتلوتان بن تلاكاكين المتوفى سنة 222 هـ / 836 م. واستمر الحكم في أسرته إلى سنة 306 هـ / 918 م، حيث تفكك الحلف على إثر ثورة قام بها أشياخ صنهاجة على ملكهم تميم بن الأثير وقتلوه.[19]

واستتبع انفضاض هذا الحلف، مرحلة من الاضطرابات والفوضى السياسية في صحراء صنهاجة، استمرت حتى بداية القرن الخامس الهجري (11م) حسب ابن أبي زرع. وهذا يعني أن المنطقة عرفت فراغا سياسيا طيلة القرن الرابع الهجري (10م). إلا أن ابن خلدون الذي ينقل عن صاحب **القرطاس** الكثير من أخبار

---

16 ـ إذا كان العمل التاريخي يشدد على التمايزات بين مجتمع وآخر، فإن العمل الانثروبولوجي يسعى إلى رصد العناصر العميقة والثابتة لدى المجتمع البشري ككل. وعن النظريات المختلفة المتعلقة بأصل نشأة الدول، التي تتداولها الانثربولوجية السياسية، ينظر مقال روبيرت كارنيرو، *نظرية في نشأة الدولة*، في مجلة الفكر العربي، ع 22، س3، 1981، ص21.7 [ترجمة رضوان السيد]. كما يمكن الرجوع إلى :

Balandier G., *Anthropologie politique*, Paris, PUF, 1967; 3è ed. revue, 1978.

17 ـ نستحضر هنا التعليق رقم1.

18 ـ فيما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة (8 ـ 10م)، لا نتوفر سوى على معلومات قليلة عن مملكة غانة، استعرضتها المصادر العربية في إطار كلامها عن التطورات السياسية التي عرفتها صحراء صنهاجة اللثام.

19 ـ ابن أبي زرع، ***الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس***. الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ص121.

صنهاجة الصحراء، استدرك عليه حدثا مفاده أن أشهر وأقوى ملك صنهاجي حكم الملثمين عاش في المائة الرابعة (10م)، وطال عهده لمدة تزيد عن نصف قرن.[20]

وإذا كان كل من ابن حوقل والبكري يتفقان مع صاحب العبر في تأكيد قوة هذا الملك، فإن الثلاثة يختلفون في تحقيق رسم اسمه، وسنحتفظ برسم البكري له : تين يروتان بن ويسنو بن نزار.[21]

وأهم ما تسجله لنا الشهادات المصدرية بخصوص عهد تين يروتان، يتمثل في قوة النفوذ السياسي للحلف الصنهاجي في خلال الثلثين الأولين من القرن الرابع الهجري (10م). وهي قوة تستند على اعتبارات اقتصادية - كما سنرى -، ولكن كذلك على القوة الديمغرافية الهائلة للقبائل الصنهاجية.[22] فقد كان قبيل الملك وحده يتكون من ثلاثمائة ألف بيت ما بين نواله وخص، عدا القبائل الصنهاجية الأخرى الخاضعة له. كما كانت تحركات الملك وغزواته قادرة على استنفار مائة ألف نجيب. وهذا ما يفسر قدرته على استرجاع مدينة أودغشت وإزاحة سلطة مملكة غانة السودانية عنها.[23]

ولا غرو والحالة هذه، أن يمتد مجال سيطرته مسيرة شهرين في مثلها وأن يدين له "أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية".[24]

---

20 - ابن خلدون، *العبر*، المجلد 6، ص 372.

21 - كذا يسميه البكري (ص 159). ورسم الاسم يقترب من الذي سجله ابن حوقل : تنبروتان. انظر : ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979، ص98. و *العبر*، المجلد6، ص372.

22 - هل تترجم الكثافة الديمغرافية للقبائل الصنهاجية خلال الفترة المعنية، تمركزا بشريا حول المراكز التجارية مثل أودغشت، وعند نقاط الماء ومواقع التماس مع السودان، أو أنها تترجم نموا ديمغرافيا قويا حقيقيا؟
الواقع أن المادة المصدرية لا تساعدنا في توضيح القضية. ومع ذلك، نلفت الانتباه إلى تزامن الظاهرتين المنوه بهما مع التطور الهام الذي عرفته التجارة الصحراوية خلال القرن الرابع الهجري (10م). ومثل هذه الكثافة أو القوة الديمغرافية، لن نلاحظها خلال القرون اللاحقة مع ابن بطوطة وليون الإفريقي. ومعلوم أن الأول اجتاز الصحراء في منتصف القرن 14م والثاني حوالي سنة 1511م.

23 - ابن حوقل، ص 97. البكري، ص 159.

24 - البكري، 159.

وهؤلاء الملوك السودانيون، ليسوا في الواقع سوى مجموعة من الأمراء يحكمون قبائل سودانية توجد ما بين مجال صنهاجة ومجال مملكة غانة. وتأديتهم الجزية، يدلنا على أن القوة العسكرية الصنهاجية إذ ذاك، لم يقتصر دورها على تأمين الحدود من هجومات مملكة غانة، والسهر على أمن المسالك والمحطات التجارية، وإنما ساهمت كذلك في الدعوة للإسلام بين السودانيين الوثنيين.

والخلاصة التي تتأدى لنا من مجموع هذه المعطيات هي أن القرن الرابع الهجري (10م)، لم يشهد بكامله اضطرابا وفوضى سياسية كما أوهمنا بذلك ابن أبي زرع[25]، وإنما اقتصرت على بضع سنوات من بدايته، أعقبتها فترة حكم تين يروتان القوية، التي دامت حتى سنة 360 هـ / 971م. بعد ذلك وفي ظروف لا تفصح عنها المصادر، تشتت الحلف الصنهاجي الثاني، لتدخل البلاد مرة أخرى فترة من الاضطرابات السياسية دامت حتى العقد الثالث من القرن الخامس الهجري (11م).

ليست لدينا معلومات عن الظروف التي اكتنفت إزاحة تين يروتان، وكل ما نعلمه، هو أن مملكة غانة ـ التي كانت تعيش إذ ذاك أوج قوتها ـ تمكنت من السيطرة على مدينة أودغشت عاصمة الصنهاجيين، وذلك بعد سنة 360 هـ / 971م.[26] ومن المحتمل أن يكون الغزو الغاني قد تم بمساعدة العناصر الزناتية، التي برزت قوتها خلال هذه الفترة، خاصة بعد تخلصها من مضايقة الفاطميين.[27]

منذ ذلك الوقت، استقر الزناتيون بمدينة أودغشت، وعملوا على ازدهارها في إطار هيمنة وسيادة ملك غانة الوثني.

25 ـ لا نستبعد أن تكون رواية ابن أبي زرع مجرد إسقاط للوضعية السياسية المتدهورة بمغرب القرن 4هـ / 10م، على وضعية صنهاجة الصحراء خلال نفس الفترة.

26 ـ ما نجده عند غير واحد من الباحثين من أن الغزو الغاني لمدينة أودغشت كان سنة 971م أو 990م، ليس سوى اجتهاد منهم. وكل ما يمكن أن نؤكده بهذا الصدد، هو أن مملكة غانة سيطرت على مدينة أودغشت بعد سنة 360هـ / 971م.

27 ـ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت، دار الثقافة.، ط3، 1983، ج1، ص.221 و230 وما تلاها. ابن خلدون، العبر، المجلد 6، ص 50.

ويمكننا رصد عدة اعتبارات، تفسر لنا صراع صنهاجة مع مملكة غانة حول مدينة أودغشت خلال القرن 4 هـ / 10م. فقد كانت المدينة تمثل مركزا تجاريا هاما، نظرا لوقوعها في الطريق الصحراوي الذي يربط ما بين سجلماسة وعاصمة مملكة غانة.[28] وبذلك كانت تنافس إمارة بني مدرار في نشاطها التجاري.[29]

ومن أودغشت كان الملح يصدر إلى مملكة غانة، ونحن نعلم الأهمية البالغة لهذه المادة في الحياة الغذائية للسودانيين، الشيء الذي جعلهم يقايضونها بما يوازي وزنها ذهبا.[30]

وسيطرة ملوك صنهاجة على مدينة أودغشت، يعني احتكارهم لتجارة مادة الملح مع بلاد السودان. من ثمة، كانت رغبة ملوك غانة قوية للسيطرة على أودغشت وذلك بهدف ضمان تزويد المملكة بهذه المادة الحيوية، وبالتالي التخلص من حاجتهم الماسة إلى ملوك أودغشت من أجل الملح.[31]

أما القبائل الصنهاجية التي كان مجالها يتوفر على عدة مملحات[32]، فقد كانت تسعى إلى ضم المدينة (أودغشت) بهدف الاستفادة من الرسوم المفروضة على القوافل التجارية الداخلة إليها والخارجة منها. وبالتالي، يمكنها ضمان مورد مالي يُقوي مركزها السياسي، ويعوضها عن الخسارات التي يمكن أن تلحق قطيعها من الماشية إبان التقلبات المناخية، ويغنيها عن الإغارة. والأهم من هذا

---

28 ـ تعرف هذه الجادة بالطريق اللمتوني. انظر : البكري، ص. 168.

-De La Chapelle, Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hesperis, T. XI, 1930, p. 64.

29 ـ نلمع إلى رواية ابن حوقل حول الصك الذي بلغت قيمته 42 ألف دينار، مما يدل على ارتفاع قيمة العمليات التجارية بين سجلماسة وأودغشت. انظر : ابن حوقل، صورة الأرض، ص 65 و96.

30 ـ البكري، ص. 174.

31 ـ ابن حوقل، صورة الأرض، ص. 98.

32 ـ نخص بالذكر مملحتي أوليل وتاتنتال (تغازة). انظر : البكري، ص. 171. والادريسي، نزهة المشتاق، ص.2. وقارن بما جاء عند :

Mauny R., - *Tableau Géographique* .., p. 116 et 328.

كله هو أن المنطقة التي توجد بها المدينة، وهي صحراوية صنهاجية، تقدم لصنهاجة أحسن موقع من الناحية المناخية والطبيعية لإقامة تمركز حضري مستقر، يسمح بالاستفادة من التجارة الصحراوية.[33]

مجموع الاعتبارات المنوه بها، كانت كافية لإغراء كل من التحالف الصنهاجي ومملكة غانة للتسلط على مدينة أودغشت. الشيء الذي أجج الصراع بينهما، وانتهى - كما رأينا - بسيطرة مملكة غانة عليها وتشتت الحلف الصنهاجي الثاني.

على أن الصراع حول المصالح الاقتصادية لم يؤد إلى قطيعة ثقافية، بل شكل عنصرا مساعدا في تزايد احتكاك وتثاقف البربر المسلمين من جهة والسودانيين من جهة أخرى.[34] الشيء الذي أدى إلى اعتناق عدد من الإمارات السودانية للإسلام في هذا الوقت المبكر.[35]

3 - مملكة غانة من خلال وصف البكري.[36]

تركنا مملكة غانة وقد استولت على مدينة أودغشت بعد سنة 360هـ / 971 م. بعد ذلك استغرقنا صمت عميق إلى أن جاء البكري، فأطلعنا على بعض

33 - انظـــــر : Tadeusz L., Le rôle du sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud, in Histoire Générale de l'Afrique, UNESCO/NEA, 1990, Vol. III, Ch. 11, pp. 334-336.

34 - انظـر : Devisse J., Commerce et routes du trafic en Afrique Occidentale, in : Histoire Générale de l'Afrique, UNESCO/NEA, Paris, 1990. Vol. III, ch.14, pp. 426-429.

35 - نقصد إمارات : كَوكَوْ، ملل، تكرور. انظر البكري، ص158، 172، 174، 178، 183. وعبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص3،

36 - حسب تصريح البكري نفسه (ص. 174)، فإنه فرغ من تحرير مؤلفه عام 460هـ / 1068م، لكن يظهر من خلال بعض المؤشرات أنها السنة التي وضع فيها اللمسات الأخيرة لكتابه. أما تاريخ التأليف فيعود - حسب محققه ومترجمه دوسلان (De Slane) - إلى ما قبل سنة 453هـ / 1062. وإذ نوافق دوسلان مبدئيا على هذا الاستنتاج، فهذا لا يعني أننا مطمئنون إليه كل الاطمئنان.

أحوال المملكة وهي تعيش الثلث الثاني من القرن الخامس الهجري (11م). فما هو واقع حال المملكة كما يفصح عنه جغرافينا؟

أ ـ سياسيا :

يحيلنا وصف البكري لعاصمة مملكة غانة على وضعية سياسية مركزية، حيث يباشر الملك سلطته انطلاقا من العاصمة غانة (قومبي صالح)، ويساعده في مهامه عدد من الوزراء والموظفين جلهم من المسلمين.

ولا نعرف شيئا عن التقسيم الإداري للمملكة وكيفية تسيير البلاد، لكن إذا أخذنا العاصمة كنموذج[37]، يمكننا القول إن الملك كان يحكم البلاد بمساعدة ولاة ينوبون عنه في تسيير شؤون الجهات أو الأقاليم.

وبجانب الوالي، نجد القاضي أو "الأمين" كما يسميه البكري، وإليه يحتكم أهل غانة في قضاياهم ومختلف مشاكلهم اليومية.[38] وفي إطار التسيير الجهوي، لا نستبعد مشاركة الزعامات المحلية في الحياة السياسية، وحتى يضمن الملك ولاءها وعدم عصيانها، كان يأخذ أبناءها كرهائن، يقيمون عنده في القصر معززين مكرمين.[39]

ويظهر أن علاقة السلطة الحاكمة بالرعايا، كانت مدعمة بقيم اجتماعية ـ ثقافية أصيلة، تتمثل أساسا في العدل الذي يطبع بشكل متميز سلوك الملك الحاكم تجاه الرعية، يقابله صدق الولاء للملك. وتمتد هيمنة هاته الخلفية الاجتماعية ـ الثقافية لتشمل مصداقية النظام السياسي، ولتقدم ضمانة لاستمراريته.[40]

---

37 ـ البكري، ص. 175 ـ 176.

38 ـ نفس المصدر، ص. 179.

39 ـ نفس المصدر، ص. 186. ويعتبر هذا الأسلوب السياسي "عادة جارية عند سلاطين السودان كلهم إلى الآن [القرن 11هـ / 17م]". انظر عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص 6.

40 ـ البكري، ص. 174. وتجدر الإشارة هنا، أن ظاهرة العدل لدى الحكام السودانيين تجاه رعيتهم، تعتبر من المظاهر التي شدت انتباه جل أصحاب المصادر العربية الوسيطية، من ابن حوقل حتى الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي.

ويجد الملك الغاني في قوته العسكرية، وسيلة مادية، لتدعيم سلطته في البلاد وحماية مجال نفوذه. وبهذا الصدد يذكر البكري أن : "ملك غانة إذا احتفل ينتهي جيشه مائتي ألف منهم رماة أزيد من أربعين ألفا".[41] ولا يخامرنا شك في أن تقدير عدد الجند مبالغ فيه، غير أنه إذا جاز لنا مُقاربة القوة العسكرية لمملكة غانة، يمكننا القول إنها كانت كافية لاستيفاء الغرض منها خاصة في العاصمة والمراكز التجارية والطرق الرابطة بينهما، والمحطة الجنوبية (غيارو) التي كانت تستقبل الذهب. أما المناطق الهامشية أو القليلة الأهمية اقتصاديا، فلم تكن تهم ملك غانة بنفس القدر.

ويتجسد لنا هذا التوجه بوضوح، في السياسة العسكرية لمملكة غانة وهي في عز أوجها. إذ في الوقت الذي نجدها تسيطر على أودغشت (بعد سنة 360 هـ / 971م) في الشمال وعلى بعض مناجم الذهب في الجنوب، في نفس الوقت نلاحظ عدم التفاتها للعمليات الجهادية التي كانت تقوم بها مدينة سلي المسلمة على الحدود الغربية.[42]

ب ـ دينيا :

كانت مملكة غانة في عهد البكري غارقة في تقاليدها الوثنية[43]، بيد أن الحضور الإسلامي بالعاصمة وغيرها من مدن المملكة كان يؤشر على تحولات عميقة لاحقة.

---

41 ـ البكري، ص. 177. للمقارنة، نسجل هنا أن جيش أسكيا إسحاق سلطان امبراطورية سنغاي، لم يتجاوز عدده 45 ألف جندي سنة 999هـ / 1590م. وهي نفس السنة التي وجه فيها أحمد المنصور الذهبي حملته لبلاد السودان لغزو سنغاي. انظر، عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص. 140.

42 ـ اعتنق أهل مدينة سلي الاسلام حوالي سنة 430هـ / 1039م، وقد تم ذلك بفضل دعوة رئيس التكرور وقتئذ، ورجابي بن رابيس. ويظهر أن المدينة آنذاك كانت خاضعة لإمارة التكرور أو متحالفة معها، وبعد حوالي قرن من الزمان من ذلك، أصبحت سلي من عمالة السلطان التكروري. وتدلنا المادة المصدرية المتوفرة، أنه فيما بين منتصف القرن 11 ومنتصف القرن 12م، كانت إمارة التكرور المسلمة تعمل على نشر الاسلام في المناطق الغربية لمملكة غانة، سواء عن طريق الدعوة السلمية أو باعتماد الجهاد إذا استلزم الأمر ذلك. ويبدو أن هذه العمليات الجهادية لم تكن تقلق حكام غانة. انظر : البكري، ص. 172 ـ الادريسي، ص. 3 ـ 4.

43 ـ البكري، ص 175.

وجل المظاهر التي نوهت بها الشهادات المصدرية، تؤكد لنا أن البلاد كانت تعيش - خلال الثلث الثاني من القرن الخامس الهجري (11 م) - مرحلة انتقالية، تمهد لتعميق وترسيخ الاسلام بين أهل غانة.[44]

فعلى مستوى السلطة الحاكمة، نجد سلوكا يعبر بوضوح عن موقفها من الاسلام والمسلمين. وفي هذا الإطار، يقول البكري عن الملك الغاني بسي الذي توفي عام 455 هـ / 1063م : "كان محمود السيرة محبا للعدل مرئدا للمسلمين".[45] أما ابن أخته تنكامنين الذي خلفه في الحكم[46]، فقد كان يعتمد أساسا على المسلمين في تسيير دواليب الحكم، حيث كان يتخذ منهم تراجمته وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه.[47]

بموازاة مع ذلك، كان ملوك غانة يعفون المسلمين - احتراما وتقديرا لهم - من التزام المراسيم التقليدية في التحية والسلام أثناء الاستقبالات الملكية : "فإذا دنا أهل دينه منه [أي الملك] جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له[48] أما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين".[49]

ولا يختلف سلوك الحكام عن سلوك المجتمع الغاني إزاء الاسلام والمسلمين. ويبقى وصف البكري لمدينة غانة العاصمة، نموذجا وشهادة فريدة على تعايش

---

44 - كثيرا ما تجنح الأدبيات التاريخية إلى ربط اسلام أهل مملكة غانة بالفتح المرابطي لعاصمتها سنة 469هـ / 1076م. وكما سيتتبع معنا القارئ في هذه الدراسة، فإن المسألة في شقيها السياسي والديني لا تستند على أي أساس علمي.

45 - البكري، ص. 174. والمرئد : الرجل الكريم.

46 - التقليد السوداني يجعل من ابن أخت الملك هو المرشح لولاية العهد. وقد تعددت الإشارات المصدرية لهذه الظاهرة. انظر : ابن حوقل، ص. 161. البكري، ص. 175. ابن خلدون، مجلد6، ص. 414.

47 - البكري، ص. 175.

48 - لقد استمر هذا التقليد عند السودانيين في تحية ملوكهم طيلة العصر الوسيط. وجل المصادر العربية الوسيطية وقفت عنده (انظر على الخصوص ابن بطوطة، تحفة النظار، ج2، ص784). ويذكر محمود كعت أن أحد الفقهاء السودانيين عاب على سلطان السنغيين أسكيا داوود (955 - 991هـ) احتفاظه بهذا السلوك في بلاطه. انظر : تاريخ الفتاش، ص. 114.

49 - البكري، ص. 176. وجغرافينا لا يميز لنا ما إذا كان هؤلاء "المسلمون" من السودان أصلا أو من البيضان (العرب أو البربر).

المسلمين والسودانيين الوثنيين، كما أنه يدلنا على دينامية الفقهاء في نشر الاسلام، ورغبة أهل غانة في التعرف على الدين الحنيف ؛ يقول جغرافينا :

"ومدينة غانة مدينتان[50] سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثني عشر مسجدا[51] أحدهما يجتمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم [...] ومدينة الملك على ستة أميال [11 كلم] من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة [...] وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين".[52]

وإذا كانت الظروف قد ساعدت على استقرار المسلمين في العاصمة وغيرها من المدن مثل غيارو ويرسني[53]، فإن مدنا ومناطق أخرى، لم تعرف نفس الوضعية، بيد أن أهاليها الوثنيين كانوا يتطلعون لرؤية المسلمين بين ظهرانيهم. ونلمس ذلك بوضوح من خلال سلوك أهل بلد غرنتيل، حيث كانوا يحتفون بالمسلمين و "يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم".[54]

من خلال ما تقدم، تشدنا مسألتان تستوجبان بعض التوضيح، تتعلق الأولى بالموقف المتراوح ما بين التقاليد الوثنية والاسلام لدى ملوك غانة، في حين تتعلق الثانية بانحصار تجربة الاسلام في المدن دون الأرياف، ذلك أن المناطق الخارجة عن المراكز الحضرية ظلت بعيدة عن التأثيرات الاسلامية.

---

50 - إن تشكل الحاضرة السودانية من مدينتين يعتبر من المظاهر المتميزة في التاريخ الحضري لبلاد السودان ؛ وفضلا عن غانة، هناك مدينة كوكو، وصنغانة، وسلي وغيرها. انظر : البكري، ص. 172، 178، 183.

51 - تدلنا الاختبارات الاركيولوجية المعتمدة على طريقة كربون 14 (C_{14}) على أن أقدم مساجد مدينة غانة العاصمة، يعود تاريخ بنائها إلى القرن الثالث الهجري (9م). انظر :
Cuoq J., Histoire de l'Islamisation de l'Af. de l'Ouest..., p. 43 note 108.

52 - البكري، ص. 175.

53 - نفس المصدر، ص. 177.

54 - نفس المصدر، ص. 177.

بالنسبة للمسألة الأولى، فقد لاحظنا كيف أن ملوك غانة خلال الثلثين الأولين من القرن 5 هـ / 11م، لم يعلنوا عن إسلامهم وظلوا متشبثين ومتمسكين - ظاهريا - بمعتقداتهم الوثنية[55] ؛ ومع ذلك، فقد وجدناهم يفتحون صدورهم للمسلمين ويمكنونهم من المناصب السامية في إدارة الدولة، ويسمحون بتشييد المساجد - حتى يتسنى للمسلمين إقامة شعائرهم الدينية بعلانية وبكل حرية -، ويشجعون الفقهاء وحملة العلم على ممارسة نشاطهم بين السودانيين.

ودون أن نقطع في الأمر، فإننا لا نشك في أن المسلمين المتواجدين بالعاصمة أو بالبلاط الملكي، لابد وأنهم قد عرّفوا الملكين الغانيين بسي وتنكامنين بالاسلام ودعوهما لاعتناقه.[56] فما الذي حال دون استجابتهما لدعوة المسلمين، هل كانا ينتظران من الفقهاء والدعاة أن يهيئوا المجتمع الغاني أولا، ثم يأتي بعد ذلك إعلانهما عن اعتناق الاسلام؟

لانستبعد تطور الأحداث في هذا الاتجاه، كما أن قرائن الأحوال تشجعنا على تبني الطرح البارز في تساؤلنا، ذلك أن عدم إعلان الملك عن اعتناقه للإسلام علانية، سيُجنبُه الاصطدام بالتقاليد الوثنية، التي تمثل المرجع الشرعي فيما يتمتع به الملك من سلطة مادية ومعنوية. ومحاولة التخلي عن هذه الشرعية، يعني حرمان الملك من المكتسبات التي تخولها له، ومنها حرمان ابن أخته من الملك.[57]

55 - تخص بالذكر منهم الملكين بسي وتنكامنين. وعن المعتقدات الوثنية لدى ملوك وأهل غانة، ينظر البكري، ص 174 - 180.

56 - يمكننا أن نستحضر بهذا الخصوص كيفية وطريقة اعتناق السلماني (ملك مالي) للاسلام في نفس الفترة تقريبا. ويجدر بنا هنا للمقارنة، الوقوف على التساؤلات التي وضعها يوسف كيوك حول هذه القضية، حيث يظهر أن آلته التحليلية قد استنفذت قوتها أو أجبرت على ذلك. انظر : البكري، ص. 178. و :

Cuoq J., Histoire de l'Islamisation..., p. 12.

57 - وتسير رواية تاريخ الفتاش التي أثرناها قبل قليل (هامش 48)في نفس الاتجاه. ذلك أنها تبين بشكل واضح أن السلطان لكي يحتفظ بهيبته أمام رعيته كان مجبرا على التمسك ببعض التقاليد الاجتماعية السودانية. ونسجل هنا أن الاسلام وقتئذ (القرن 10هـ/ 16م)، كان يشكل المرجعية الشرعية للدولة السنغائية دينيا وسياسيا.

ونعتقد أن الملكين الغانيين بسي وتنكامنين قد اعتنقا الاسلام بالفعل، وهذا ما يبرر تعاطفهما مع الاسلام والمسلمين، غير أنهما كانا يخفيان أمرهما. ومثل هذه الحالة تطرق لها البكري في كلامه عن أحد أمراء السودان، وهو قنمر ابن بسي أمير مدينة الوكن، حيث قال في حقه : "إنه مسلم يخفي إسلامه".[58]

ومهما يكن من هذا الأمر، علينا ألا نتغافل دور العامل الزمني في قلب الأفكار والمعتقدات، وأن نقدر وتعتبر هذا المعطى في معالجة القضية ؛ ولا حاجة للتذكير هنا، أننا مازلنا نعيش المرحلة الجنينية لحضور الاسلام ببلاد السودان.

ويجرنا الكلام عن حقيقة اسلام أمير مدينة الوكن، لإثارة المسألة الثانية، المتعلقة بانحصار تجربة الاسلام بالمدن دون الأرياف. وهذه الظاهرة التي يشهد عليها البكري وغيره، تمثل ظاهرة عامة في بلاد السودان، ولا تخص مملكة غانة لوحدها.[59]

والواقع أن المتمرس بالمصادر العربية المعنية بمنطقتنا، لن يجد صعوبة في الكشف عن طبيعة الظرفية التي تولدت عنها قضيتنا. ذلك أن التجارة ما بين ضفتي الصحراء الكبرى، ساهمت بشكل فعال في نقل التأثيرات الاسلامية إلى بلاد السودان. ومن البديهي أن التاجر المسلم الآتي من بلاد المغرب أو مصر، لن تغريه الأسواق الصغيرة المتوفرة في القرى، بالقدر الذي تغريه أسواق حواضر السودان. ولهذا السبب كان يختار هذه الأخيرة كمحطات أساسية للتوقف والمتاجرة، بهدف تحقيق أكبر قدر من الأرباح.

وباعتبار المعاينة والاحتكاك المباشر بين التجار المسلمين والسودان القاطنين بالمدن، كان ما كان من انتشار الاسلام بينهم أولا، ثم في مرحلة لاحقة وانطلاقا من المراكز الحضرية، أخذ الإشعاع الديني يمارس تأثيره على المناطق المحيطة بها أو المجاورة لها.

---

58 ـ البكري، ص، 179.

59 ـ نفس الحالة عرفتها إمارة كوكو وملل وتكرور. انظر البكري، ص. 172، 178، 183.

وقد ساعد على تطور الحالة بهذا الشكل، أن وجد الفقهاء والدعاة المسلمون أنفسهم مضطرين ـ لأسباب مختلفة ـ لتعقب خطى التاجر، وبالتالي استقروا بالمدن، ومنها انطلقوا في تعليم السودانيين مبادئ الدين الاسلامي.[60]

ج ـ في الاقتصاد :

إن سيطرة مملكة غانة على المراكز التجارية ـ ومنها أودغشت ـ وبعض مناجم الذهب، جعلها تحتكر أهم السلع المتداولة في التجارة الصحراوية : الذهب والرقيق. وإذا أضفنا مداخيل الرسوم المفروضة على السلع الواردة والصادرة على / من البلاد، يصبح بإمكاننا تفهم الأسس التي قام عليها الرخاء المادي للمملكة خلال القرن الخامس الهجري (11م).[61]

ويجد هذا الرخاء ترجمته في وصف البكري للبلاط الملكي، حيث كان الذهب يموه كل شيء في القصر، بدءا من سلاسل الكلاب وسيوف الغلمان والحرس، إلى ثياب الملك وظفائر شعر الأمراء.[62]

بهذه الصيغة تتحدث الشهادات المصدرية، واعتمادا عليها تنبني الكثير من تصورات الباحثين، وهي تصورات مسايرة في مجملها لانطباعات أصحاب مصادرنا. لكن ما هي قيمة الذهب في بلاد السودان ـ حيث مناجم إنتاجه ـ، وهل تداوله بين أهل غانة واستعمالهم له في التجارة الصحراوية يدل على ازدهار اقتصادي واجتماعي؟ ثم ماهي قيمة مصاريف الدولة الغانية؟

نترك تفصيل الجواب للمختصين[63] ونقتصر على بعض الملاحظات الأولية:

---

60 ـ نجد عند الدمشقي تصورا يساير الصيغة التي قدمنا بها كيفية انتشار الاسلام في المدن، ومنها إلى الأرياف. انظر : الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبسك، 1923، ص. 268.

61 ـ البكري، ص. 176.

62 ـ نفس المصدر، ص. 175 ـ 176.

63 ـ يستحسن بهذا الصدد الرجوع إلى الدراسة القيمة التي أنجزها جان دوفيس عام 1970، وقد أعاد نشرها بعد تنقيحها في موسوعة "*تاريخ إفريقيا العام*". انظر :
Devisse J., Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale, Vol. III, Ch. 14, pp. 397- 465.

إذا نظرنا إلى مملكة غانة من الأندلس خلال القرن الخامس الهجري (11م)، فإن ذهبها - بالشكل الذي يقدمه لنا البكري - سيثير بدون شك لعاب الأندلسيين والتجار المسلمين بصفة عامة، وهذا ما قصده جغرافينا بكتابته في الموضوع. في المقابل، كانت تبدو له مملكة غانة كنظام سياسي وكبنية اقتصادية - اجتماعية متواضعة، إلى درجة أنه - كما رأينا - لم يجد ما يصفه غير عاصمة المملكة وقوة جيش الملك وبعض العادات العقائدية والاجتماعية.

إن انشداد وصف البكري للذهب في بلاد غانة، يعكس قيمة هذا المعدن بالنسبة إليه وليس بالنسبة للسودانيين، فهؤلاء كانوا يقايضونه وزنا بوزن بسلع لا قيمة لها تذكر (مثل الملح) في أسواق العالمين الاسلامي والمسيحي وقتئذ.[64]

ويترتب عن ذلك، أن القيمة المرجعية لأية سلعة تدخل أو تخرج من بلاد السودان، لا ترتبط قيمتها بندرتها فحسب، وإنما أساسا بقدرتها على اجتياز الصحراء ؛ وأهل غانة - في حدود معلوماتنا - لم يغامروا باختراقها قط.[65]

حقا، كانت مملكة غانة تتوفر على ثروات لها أهمية قصوى في التجارة العالمية آنذاك : الذهب والرقيق ؛ بيد أنها لم تكن تتوفر على التأطير السياسي والاجتماعي - الثقافي، القادر على تنمية ثروات البلاد، أو على الأقل الكفيل بتحقيق استفادة مناسبة لقيمة سلعها.

وعلينا ألا ننخدع بالصورة التي يرسمها كل من ابن حوقل والبكري عن ملك غانة وبلاطه، ولا بنتائج التحليلات التي توحي بأننا أمام مملكة محكمة التنظيم وغارقة في الثروات. وإذا كانت المصادر تتحدث عن تلك الثروات والكميات البالغة من الذهب المتوفرة لدى الملك، فإن ادخارها في خزينته، يؤكد أن الدولة الغانية لم تكن تتحمل مصاريف مرهقة إزاء الإدارة والجيش. بموازاة مع ذلك، لا نجد أثرا لفئات سودانية تجارية مغامرة، والمراكز الحضرية قليلة[66]

64 - راجع هامش رقم 30.

65 - انظر كلام ابن خلدون عن أرباح التجارة البعيدة المدى، وقد ضرب لنا مثالا بالتجارة الصحراوية بين بلاد المغرب وبلاد السودان. العبر، المجلد 1، ص. 707.

66 - إذا استثنينا غانة العاصمة ومدينة أودغشت، فإننا لن نعثر في المملكة على مدن في مستواهما الحضري والتجاري. وبالنسبة للمراكز الأخرى التي أشار إليها البكري مثل سامقندي وطاقة ويرسني إلخ، يمكن أن نعتبرها كتجمعات قروية ليس إلا. وحتى بالنسبة لعاصمة المملكة فإنها كانت أقل بهاءا معماريا من تادمكة التابعة لإمارة سنغاي وقتئذ، وذلك حسب شهادة البكري نفسه. انظر : البكري، ص. 181.

وعاجزة عن احتواء ومواكبة التطورات الهامة، التي كانت تعرفها التجارة الصحراوية خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (10 ـ 11م). وعقلية المجتمع في جل أبعادها ماتزال تحكمها تقاليد عتيقة.(67)

وقد كان حكام غانة، بحكم احتكاكهم بتجار وفقهاء بلاد المغرب، واعين بحساسية الموقف، من ثمة نفهم محاولاتهم المستمرة للاستعانة بتجربة التجار والفقهاء المسلمين في تسيير شؤون البلاد.

وخلاصة القول، إن ما يصطلح على تسميته بمملكة غانة ـ في عهد البكري ـ لا يحيلنا على نظام سياسي وهياكل إدارية واقتصادية محكمة التنظيم، ونسيج حضري كثيف، بقدر ما يحيلنا على تجربة مجموعة من القبائل السودانية، حاولت مستعينة بالاسلام ورجاله أن تطور نفسها وتؤسس نظاما سياسيا أكثر تطورا.

4 ـ مملكة غانة كما انتهت إلى الإدريسي.(68)

تؤكد جل الدراسات التاريخية، أن مملكة غانة التي وصفها البكري، قد انهارت كوحدة سياسية بعد الغزو المرابطي لعاصمتها سنة 469 هـ / 1076م. ومن جانبنا، فلن نأخذ بهذا الكلام ـ الذي سنفنده قريبا ـ، لأننا نعتقد أن مملكة غانة كوحدة سياسية، قد استمرت في الحياة بنفس القوة التي عرفتها في عهد البكري، وربما أكثر.(69)

---

67 ـ انظر على سبيل المثال بعض تقاليد القضاء عند أهل غانة. البكري، ص. 173 ـ 179.

68 ـ يرى ف. مونتيل أن غانة التي وصفها البكري ليست هي نفسها التي انتهت إلى الإدريسي. ونعتقد أن لا داعي لمثل هذه الشكوك المغالية، ذلك أن مقارنة المعطيات التي يطرحها الجغرافيان، تؤكد بوضوح أنهما يتحدثان عن نفس الوحدة السياسية. انظر :

Monteil V., L'Islam Noir, Paris, Le Seuil, 3e ed., 1974, p. 84.

69 ـ كان من نتائج الاعتقاد في واقعة الغزو المرابطي، أن ضاع تاريخ غانة كما ضاع تاريخ سلطنة التكرور، ولم يعد أحد يتحدث عنهما أو يلتفت إليهما بعد القرن 5هـ/ 11م، أي بعد شهادات البكري.

حقيقة خرجت مدينة أودغشت عن سلطة غانة بعد ما غزاها المرابطون سنة 446 هـ / 1055م[70]، وربما - كذلك - تقلصت الحدود الغربية للمملكة نتيجة توسع سلطنة التكرور.[71] لكن في المقابل، علينا أن نسجل امتداد الحدود الشرقية لمملكة غانة، فقد تركها البكري على بعد ثلاثة أيام من العاصمة، بيد أنه مع الإدريسي في منتصف القرن 6 هـ / 12م، أصبحت تمتد لمسافة ستة (6) أيام منها.[72]

وهذا التغيير في الخريطة السياسية لمملكة غانة فيما بين عهدي البكري والإدريسي، يعكس التحولات العميقة التي كانت تعرفها اتجاهات المحاور التجارية الصحراوية. ذلك أن المحور الغربي - الذي يمر بأودغشت - أخذ يفقد أهميته لصالح المحور الأوسط الذي يمر بتغازة، نتيجة تنامي إنتاج مملحة تغازة، ونتيجة تغيير جدالة لطريق ملح أوليل في اتجاه بلاد السودان : حيث أصبحت القبيلة الصنهاجية تصرفه عبر نهر السينغال وليس عبر أودغشت.[73]

ولعل في تطور علاقات مملكة غانة التجارية مع أهل وارجلان[74]، ما

---

70 - البكري، ص. 68.

71 - حسب البكري، توجد إمارة التكرور على الضفة اليسرى لنهر السينغال، وهي بذلك تقابل على الضفة اليمنى مجال انتشار قبيلة جدالة الصنهاجية. اعتنق أهل التكرور الاسلام منذ بداية القرن 5هـ / 11م، أي قبل قيام الحركة المرابطية. ومنذئذ وهم يعملون بدورهم على نشر الاسلام وتوسيع مجال نفوذهم جنوبا وشرقا. وفي عهد الادريسي، أصبحت الإمارة عبارة عن سلطنة اسلامية على غاية الأهمية من الناحية السياسية في بلاد السودان، حيث تمكنت من بسط نفوذها على بعض المناطق والمدن التابعة لمملكة غانة، مثل بريسي وسلي. وكان طبيعيا أن تصطدم هذه التطلعات والطموحات السياسية التكرورية بسلطة غانة، غير أن انشغال حكام غانة بالمناطق الشرقية - التي محورها الثنية الأولى لنهر النيجر - جعلهم يغضون الطرف عن التحركات التكرورية. انظر : البكري، ص. 172. الادريسي، ص، 3 - 4.

72 - كانت مدينة سفنقو آخر عمل غانة شرقا، وفي عهد الادريسي امتدت الحدود إلى مدينة تيرقي، انظر : البكري، ص. 181. الادريسي، ص. 8.

73 - انظر : الادريسي، ص. 2. و :

Devisse J., Denis, R. Robert, S : Tegdaoust I, Recherches sur Aoudagost, Paris, A. M. G., 1970, T. I. p. 116.

74 - الادريسي، ص. 120.

يترجم بوضوح هذه التحولات في المحاور التجارية الصحراوية، كما أنه يؤشر على سياسة غانة التوسعية في اتجاه الحوض الأوسط لنهر النيجر. وفي هذا الإطار، فإن خلاصة رأي ج. دوفيس (J. Devisse) حول الأسباب الحقيقية للانهيار التجاري لمدينة أودغشت، تبدو مقنعة إلى حد كبير. ذلك أنه يعزوها إلى تحول اتجاه التجارة الصحراوية عنها، وليس إلى واقعة الغزو المرابطي لها.[75]

وباندحار الدور التجاري لمدينة أودغشت، لم تعد المدينة تمارس إغراءا بالنسبة لمملكة غانة، لهذا السبب لم تلتفت إليها حتى بعد أن خمدت التحركات العسكرية المرابطية في الصحراء سنة 480هـ / 1088م.[76] وربما لنفس السبب (تحول أهمية المحاور التجارية نحو الشرق)، وجدت مملكة غانة نفسها مندفعة نحو الشرق، مديرة بذلك ظهرها للمناطق الغربية، الشيء الذي سهل تنامي وتطور القوة السياسية لسلطنة التكرور.

هكذا، نلاحظ أن ما فقدته مملكة غانة في الشمال والغرب عوضته في الشرق. أما الحدود الجنوبية فقد ظلت على ما كانت عليه في عهد البكري، ولم تتمكن سلطنة التكرور من زحزحتها، حيث كانت مدينة غيارو القريبة من مناجم الذهب، آخر نقطة في حدودها الجنوبية.[77]

وعلى المستوى الحضري، تطورت المملكة كثيرا فيما بين عهدي البكري والإدريسي. فكما لاحظنا سابقا كانت مدينة تادمكة أحسن بناءا من غانة العاصمة، بيد أننا حينما نعود لهذه الأخيرة مع وصف الإدريسي، نجدها قد أصبحت من أكبر مدن بلاد السودان "قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير".[78] الشيء الذي يبرهن على التطور الكبير الذي عرفته

---

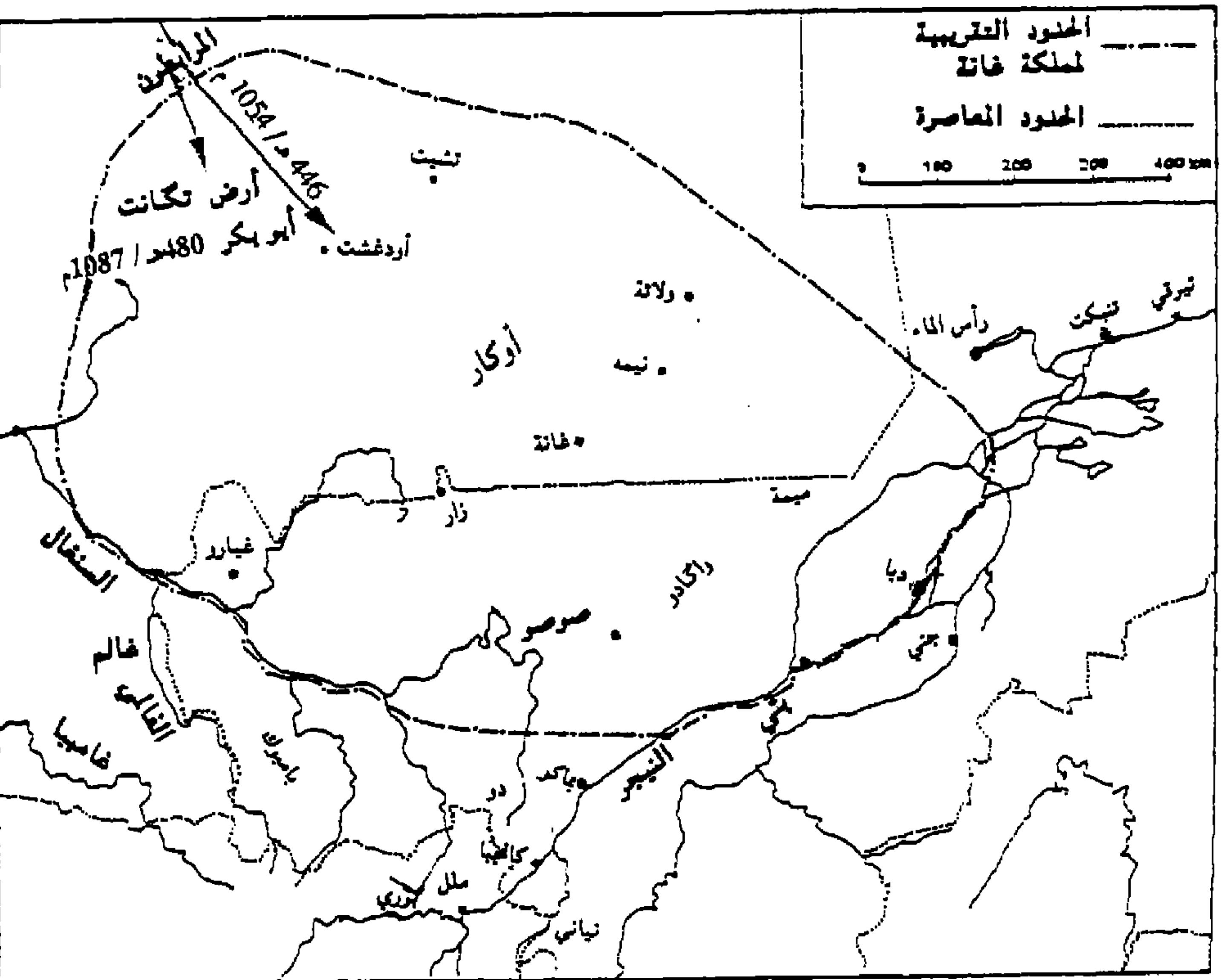
75 ـ انظر : Devisse J., Tegdaoust I..., T. I, pp. 109 - 156.

76 ـ هناك إشارة غامضة وردت عند الادريسي (ص. 32)، توحي بأن مملكة غانة قد استردت أودغشت بعد الغزو المرابطي المزعوم. لكن ماذا ستفعل بها بعد تحول المحاور التجارية عنها ؟

77 ـ البكري، ص 176 ـ 177. الادريسي (غيارة)، ص. 4 ، 9.

78 ـ الادريسي، ص. 6.

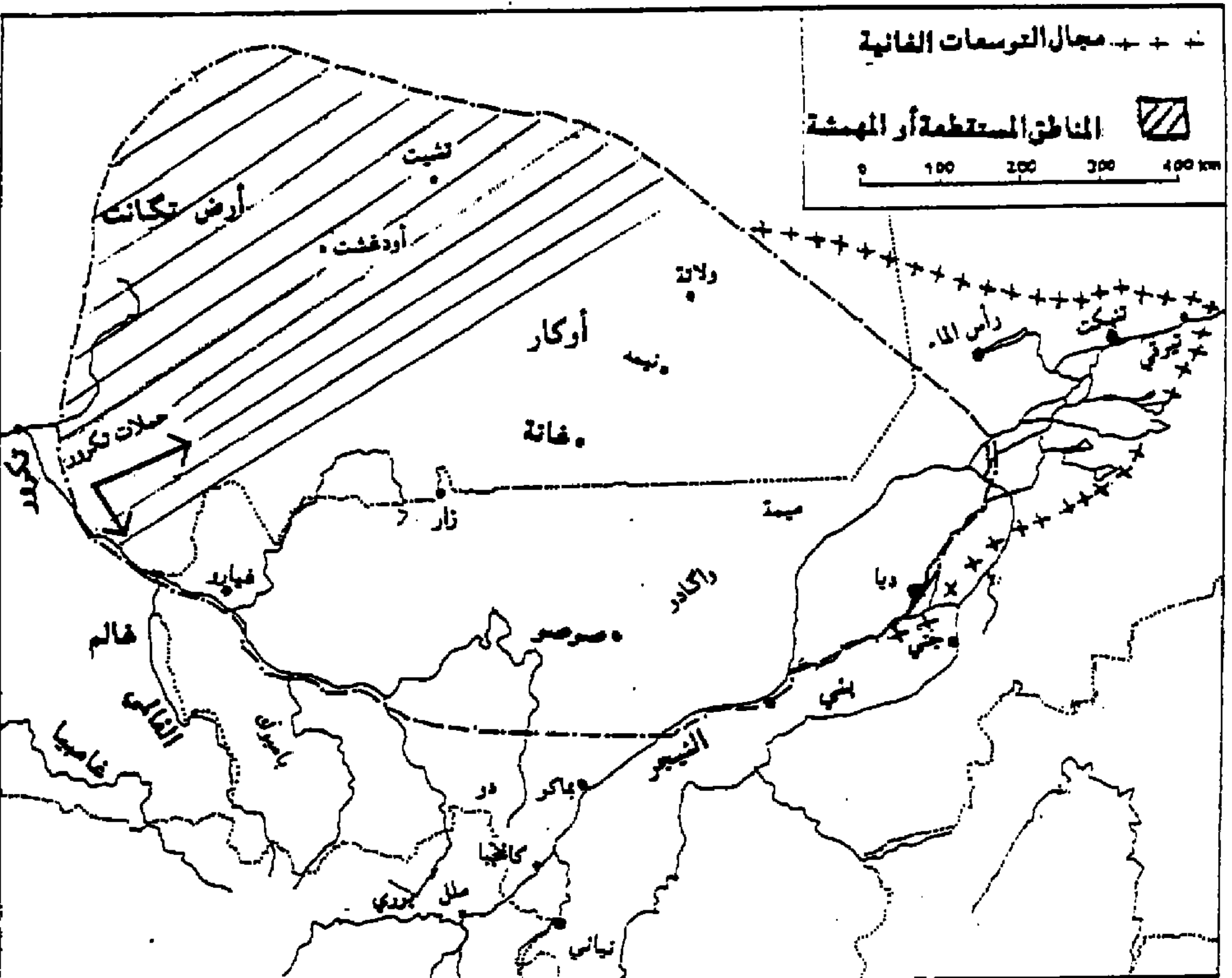
خريطة رقم 2



مملكة غانة في بداية القرن الخامس الهجري (11 م)

نقلا عن ريموند موني بتصرف (Tableau Géographique.., p 510)

خريطة رقم 3



مملكة غانة بعد تعديلات منتصف القرن السادس الهجري (12 م)

غانة العاصمة فيما بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس للهجرة (11 ـ 12م). وبموازاة مع ذلك تطورت مدن المملكة الأخرى، مثل مدينة تيرقي، وظهرت مراكز جديدة مثل ولاتة.

وامتدت هذه التحولات لتشمل الجانب الديني، فبعد أن تركنا البكري أمام لوحة تمثل أهل مملكة غانة وملوكهم وهم غارقون في الوثنية، وأهل العاصمة وهم منقسمون على أنفسهم بين الوثنية والاسلام، أصبح الجميع في عهد الإدريسي يعتنق الاسلام. ولم يكتف الملك الغاني بذلك، بل أراد أن تكون لديه صلة رحم بآل البيت، وفي هذا الإطار، أعلن عن تبعيته للخلافة العباسية.[79]

وإعلان الملك الغاني عن تبعيته للخلافة العباسية، لا يعني أنه كان يبحث عن مسوغ شرعي يدعم موقفه أمام شعب الصوصو الوثني كما اعتقد غير واحد من الباحثين.[80] ذلك أن شعب الصوصو وقتئذ لم يكن يعرف الاسلام فبالأحرى أن يميز بين طبقاته. وأن يكون الملك الغاني تابعا للخلافة العباسية أو الموحدية، فإن ذلك لا يعني شيئا بالنسبة لشعب وثني. والدليل على ما نذهب إليه، أن تلك التبعية المنوه بها، لم تمنع الصوصو من الهجوم على غانة واستعباد أهلها فيما بعد. ونعتقد أن المسألة ينبغي النظر إليها في إطار التنافس الديني ـ خلال القرن السادس (12م) ـ فيما بين مملكة غانة وسلطنة التكرور المسلمتين.

إن الشيء الأكيد من خلال المعطيات الدينية التي يطرحها الإدريسي عن بلاد السودان، هو أن الاسلام قد تعمق وترسخ بين السودانيين أكثر من ذي قبل، حيث أصبح يمثل المرجع الأساسي في حياتهم. وهذا ما يفسر تعلق ملك غانة بآل البيت والخلافة العباسية، كما يفسر اتخاذ أمير التكرور لقب السلطان.

---

79 ـ الادريسي، ص. 6. وقد انتقد ابن خلدون إشارة الادريسي المتعلقة بانتساب ملك غانة لعلي ابن أبي طالب. انظر : *العبر*، المجلد 5، ص. 931.

80 ـ آخرهم يوسف كيوك، انظر : Cuoq J., Histoire de l'Islamisation..., pp. 58 - 59.

ورواية الجغرافي الزهري بهذا الصدد، تملك الكثير من المصداقية، لأنها تساير وتدعم أقوال الادريسي، وتكشف لنا عن مدى تشبع أهل مملكة غانة بالتعاليم الاسلامية، يقول جغرافينا : "وهم اليوم [منتصف القرن 6هـ / 12م] مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم وساروا إلى مكة وحجوا وزاروا وانصرفوا إلى بلادهم وأنفقوا أموالا كثيرة في الجهاد".[81]

لقد عاشت مملكة غانة بعد الادريسي عدة عقود، وربما امتد عمرها حتى مطلع القرن السابع الهجري (13م)، حيث انهارت واضمحلت كوحدة سياسية هامة في بلاد السودان، وذلك على إثر هجوم شعب الصوصو عليها.[82] وبذلك اختفت المملكة نهائيا وتركت المجال مفتوحا لبروز قوة سياسية اسلامية جديدة : امبراطورية مالي.

وعلى الرغم من انهيار الحكم الغاني في بلاد السودان، فقد ظل إقليم غانة في عهد مملكة مالي (1230 ـ 1430م)، يتمتع بنوع من الاستقلال النسبي عن نياني العاصمة ؛ كما أن حاكم الاقليم كان يحظى بتقدير خاص لدى البلاط المالي، مما يفسر احتفاظه بلقب "ملك" دون غيره من حكام أقاليم المملكة.[83]

---

81 ـ الزهري، كتاب الجعرافية. بورسعيد ـ مصر، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ النشر. [تحقيق : محمد حاج صادق]. ص. 125.

82 ـ في محاولة لتحديد تاريخ هجوم الصوصو على مملكة غانة، يذكر م. دولافوس أن الحدث وقع سنة 1203م، غير أنه لا يعرفنا بالمصدر الذي اعتمده في هذا التحديد. حقا أشار ابن خلدون (*العبر*، م6، ص 431) لهجوم الصوصو على غانة، لكنه لم يعين لنا تاريخا محددا. انظر :
Delafosse M., Haut-Sénégal-Niger,T. II, p. 56.

83 ـ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الأبواب 8 ـ 14). الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1988. [تحقيق وتعليق : مصطفى أبو ضيف أحمد]. الباب 10، ص 61.

الفصـــــــل الثاني

II البعد التاريخي لعلاقة المرابطين ببلاد السودان

إن المتتبع للتطورات السياسية التي عرفتها صحراء صنهاجة اللثام طيلة العصر الوسيط، سيلاحظ اخفاقا متواليا لكل محاولة تستهدف إقامة وحدة سياسية قوية ومستمرة بين القبائل الصنهاجية، وذلك على الرغم من الأهمية القصوى لمواقعهم الجغرافية في التجارة الصحراوية.[84] ولاشك أن انتشار الاسلام بينهم خلال القرن الثالث الهجري (9م)،[85] قد هيأ ظروفا مساعدة لمثل هذه الوحدة، إلا أنه كان غير كاف أمام التحديات القاهرة التي تفرضها طبيعة ومناخ الصحراء.[86]

وقيام الحلف الصنهاجي الثالث، الذي انبثقت عنه الحركة المرابطية سوف يخضع لنفس المنطق. لكن ما الذي جعل جبروت الصحراء يعترف باسم عبد الله ابن ياسين ورفاقه، هل لأنهم خرجوا عن القاعدة وأقاموا دولة في الصحراء؟ أم لأنهم استشهدوا في سبيل التحكم في المحاور التجارية الصحراوية والسيطرة على مناجم الذهب في بلاد السودان؟

1 ـ قيام الحلف الصنهاجي الثالث وولادة الحركة المرابطية

عند نهاية القرن الرابع (10م)، كان الحلف الصنهاجي الثاني قد انحل، فافترقت كلمة القبائل الصنهاجية وتفرقت أهواؤها. بموازاة مع ذلك، تمكنت مملكة غانة ـ كما رأينا ـ من السيطرة على مدينة أودغشت.

---

84 ـ قد يُحتج علينا بالحركة المرابطية، لكن يكفي أن نستحضر مدة إقامتها بالصحراء (أقل من عشر سنوات) لكي نتخلى عن اعتراضنا. ويرى دولا شابيل أن قصر أفق نظرة القبائل الصنهاجية، شكل السبب الأساسي الذي حال دون تطور بنية نظامهم السياسي!
De La chapelle F., Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hesperis, T. XI, 1930, p. 83.

85 ـ ابن خلدون، *العبر*، المجلد 6، ص. 373.

86 ـ وكانعكاس لهذه المعطيات الطبيعية القاسية، فقد ترسبت في ذهنية أهل بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، صورة سلبية تجاه الصحراء، حيث كانوا يعتبرونها كمجال للنفي السياسي والاجتماعي. وقد لا نتنكب الصواب إذا قلنا إن نظرة المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط إزاء الصحراء، كانت تماثل نظرته وتصوره عن بحر الظلمات (المحيط الأطلنتي)، وهي نظرة تهيب وخوف. انظر : ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 90. ابن عذاري، ج1، ص 258. وقسم الموحدين، ص 130. ابن خلدون، العبر، المجلد 5، ص 47، 109 ـ 110. المجلد 6، ص 194 ـ 195.

وقد ظلت الوضعية السياسية لصنهاجة اللثام مضطربة إلى حين بداية العقد الثالث من القرن الخامس الهجري (11م)، حيث تمكنوا من توحيد صفوفهم تحت زعامة الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتارشتا اللمتوني. وتذكر المصادر أن الزعيم الصنهاجي الجديد، كان من أهل الفضل والدين والحج والجهاد.(87)

ويدلنا حجه ثم جهاده للسودان على مدى تعمق وترسخ الاسلام بين صنهاجة، بعدما مر أكثر من قرن من الزمان على انتشاره بينهم. على أن مسألة جهاده للسودان، تبقى غامضة مالم نضعها في سياقها التاريخي، ونبرز معناها الحقيقي.

ويمكننا القول بهذا الصدد، إن العمليات الجهادية التي قادها تارشتا، كانت محدودة جدا في الزمان والمكان. ذلك أنه بعد ثلاثة أعوام من قيام الأمير بأمر صنهاجة، استشهد في مكان محاذي لقبيلة بني وارث الصنهاجية(88) ؛ مما يعني أننا مازلنا في الصحراء، أو على مشارفها المطلة على بلاد السودان.

على هذا الأساس، فإن جهاد تارشتا للسودان ـ حسب البكري وابن أبي زرع ـ لم يشمل، وذلك على أبعد تقدير، سوى بعض القبائل السودانية المتواجدة على الهوامش الشمالية لمملكة غانة.

ويظهر أن مثل هذه العمليات العسكرية الصنهاجية، ذات الصبغة الجهادية، لم تكن تثير أو تقلق ملوك غانة. وحينما نلاحظ تزامن تلك العمليات

---

87 ـ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، 1973، ص. 121. ونلفت الانتباه هنا إلى أن البكري (ص.164) يسميه محمدا المعروف بتارشني.

88 ـ حسب البكري (ص.164) فإنه:"هلك بموضع يقال له تنقارة من بلاد السودان وهم قبيل من السودان بغربي مدينة بانكلابين [!] وهي مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببني وارث من صنهاجة". انظر وقارن مع رواية ابن أبي زرع، ص. 121. والسؤال المؤرق في رواية البكري : متى وأين تنتهي عنده الصحراء، ومتى وأين تبدأ بلاد السودان؟

مع جهاد أهل مدينة سلي على الحدود الغربية للمملكة[89]، ونستحضر في نفس الآن حُظوة المسلمين عند حكام غانة وأهلها، يتهيأ لنا أن ملوك غانة - وهم في موقع القوة عسكريا وسياسيا إزاء مدينة سلي والحلف الصنهاجي الجنيني - كانوا يرغبون في تحول المجتمع الغاني للاسلام. من ثمة، نفهم سكوتهم عن تلك العمليات الجهادية، مادام القصد منها هو نشر الاسلام، وليس المساس بكيان المملكة.

وبعد مهلك الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني (تارشتا) حوالي عام 425هـ / 1034م[90]، تولى **صهره** يحيى بن إبراهيم الجدالي أمر صنهاجة من بعده، وبذلك انتقلت رئاسة الحلف الصنهاجي، ربما لأول مرة في تاريخه، من لمتونة إلى جدالة. ولاشك أن الأمر له دلالة عميقة بخصوص ترتيب البيت الصنهاجي الجديد، غير أننا لا نعرف شيئا عن طبيعة المعطيات المستجدة، التي سمحت بانتقال رئاسة الحلف من قبيلة لمتونة إلى جدالة بتلك السهولة. ودون أن نغرق أنفسنا في التخمينات المتاحة لتفسير الحدث، يمكننا أن نسجل ملاحظتين تلقيان بعض الضوء على القضية :

الأولى - إحساس ابن أبي زرع بأهمية الحدث، لكنه - ربما - لم يجد تحت يديه ما يسمح بتفسيره وتوضيح حيثياته، فارتكن إلى أقوال النسابين، واعتمدها كتفسير ملائم. لكن ماذا يجدي قولنا بأن "جدالة ولمتونة إخوة يجتمعون في أب واحد".[91] مهما يكن من أمر هذا التفسير، نحتفظ باهتمام صاحب **روض القرطاس**، كدلالة على أهمية الحدث.

الثانية - يدلنا تصاهر زعماء لمتونة مع زعماء جدالة على حالة من الوفاق التام بينهما. والأهم من ذلك، أن حالة الوفاق هاته تبرز كظاهرة متميزة في تاريخ صنهاجة، نلاحظها ونقف عليها كلما وجّه الحلف الصنهاجي اهتمامه (دينيا =

89 - البكري، ص. 172. وراجع ما جاء في هامش رقم 71.
90 - المصادر لا تذكر سنة 425هـ / 1034م، وقد اعتمدناها على وجه الاحتمال والترجيح، بناءا على سياق الأحداث كما وردت عند البكري (ص. 164) وابن أبي زرع (ص. 122).
91 - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 122.

الجهاد) نحو الجنوب في اتجاه بلاد السودان.[92] وتعني هذه الملاحظة فيما تعنيه، أن جدالة المصاقبين لبلاد السودان، مرتبطون بشريا واقتصاديا ودينيا بالجنوب أكثر منه بالشمال.

وفي عام 427هـ / 1036م، استخلف الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ابنه إبراهيم على رئاسة الحلف الصنهاجي، وقصد المشرق برسم حج بيت الله الحرام.[93] وفي طريق عودته، توقف بالقيروان بهدف الأخذ عن شيخ المالكية بها، أبي عمران الفاسي.[94]

وعندما توطدت العلاقة بين الرجلين في القيروان، أخذ الفقيه في استجواب الأمير الصنهاجي عن واجبات دينه." فلم يجده يعرف شيئا منها ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا، إلا أنه حريص على التعلم، صحيح النية والعقيدة واليقين، جاهل بما يصلح دينه".[95] ثم سأله عن حال قومه وما ينتحلونه من

---

92 ـ كما لاحظنا مع تارشتا، فقد وجدنا لديه اهتماما ببلاد السودان (الجهاد). وكذلك الأمر بالنسبة لعهد تين يروتان خلال القرن 4هـ / 10م (انظر البكري، ص. 159). وكما سنرى لاحقا فإن الحلف الصنهاجي حينما سيتوجه بزعامة عبد الله بن ياسين إلى الشمال (المغرب الأقصى)، فإن جدالة لن ترافقه.

93 ـ البكري، ص. 164. ابن أبي زرع، ص. 122. ونسجل هنا أن الأمير يحيى الجدالي كزعيم للحلف الصنهاجي، لم يكن يريد البقاء دون شرف الحج الذي ناله الزعيم اللمتوني السابق (تارشتا).

94 ـ أبو عمران موسى بن أبي حاج الفاسي، من أكبر فقهاء المالكية في بلاد المغرب، أصله من مدينة فاس، نزل بالقيروان حيث قضى بها بقية حياته إلى أن توفي سنة 430هـ / 1039م. انظر ترجمته في : ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف. الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1984 [تحقيق أحمد التوفيق]. ص. 87 وهامش رقم 15. وتجدر الاشارة إلى أن المصادر التاريخية ومصنفات تراجم فقهاء المالكية، تتفق حول تاريخ وفاة أبي عمران (سنة 430هـ)، وما يذكره ابن خلدون (العبر، م 6، ص. 373) ـ سهوا وليس خطأ ـ من أن لقاء الأمير بالفقيه كان سنة 440هـ، نظن أنه ناتج عن إشارة البكري التي بقيت عالقة في ذهن صاحب العبر، فكتب ما كتب دون أن يحقق في الأمر مليا. ومنطوق الاشارة : "وهذه القبائل [صنهاجة] هي التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة". انظر البكري، ص. 164.

95 ـ ابن أبي زرع، *روض القرطاس*، ص. 122.

المذاهب[96]، فرد الأمير يحيى بن إبراهيم : "يا سيدي إن أهل بلادي قوم عَمَّهم الجهل وليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه".[97]

ويظهر أن الصياغة أو الأسلوب الذي غطى به أصحاب مصادرنا الحوار الذي دار بين الرجلين، كان مقصودا، سواء بوعي أو بغير وعي منهم. لهذا، لم تكن لديهم رغبة في معرفة أسباب تلك الحالة الدينية المزرية لصنهاجة وأميرها يحيى، وبالتالي إخبارنا بها. وحتى رواية البكري المعاصرة للأحداث، والتي حاولت تعليل تلك الحالة من وجهة نظر الأمير الصنهاجي، فإنها لا تضيف شيئا جديدا.[98]

وبعد انتهاء الحوار، طلب الأمير الصنهاجي من أبي عمران الفاسي أن يوفد معه أحد طلبته إلى الصحراء، ليعلم صنهاجة أحكام دينهم ويبصرهم فيها. إلا أن الطلبة أشفقوا على أنفسهم من دخول الصحراء، فكان أن كتب أبو عمران رسالة إلى واجاج بن زلو اللمطي[99] شيخ رباط نفيس[100]، يوصيه فيها بالأمير، ويطلب منه أن يحقق رغبته.

---

96 ـ العبارة للبكري (ص. 165)، وهي ليست مجانية. ذلك أن الصراع المذهبي في بلاد المغرب وخاصة في إفريقية خلال القرن الرابع وبداية الخامس للهجرة، كان له أثر كبير على الحياة العامة للمسلمين وقتئذ. وعبارة البكري، تضمر مدى انشغال الفقهاء بالقضية إذ ذاك.

97 ـ ابن أبي زرع، ص. 122. قارن مع رواية البكري، ص. 164 ـ 165.

98 ـ البكري، ص. 165.

99 ـ جاء عند ابن الزيات التادلي، أنه "من أهل السوس الأقصى. رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه، ويتبركون بدعائه وإذا ما أصابهم قحط استسقوا به". انظر: *التشوف إلى رجال التصوف*، ص 89. ويذكر المختار السوسي (*المعسول*، ج 11، ص 30) أن نسبه يرتفع لعلي بن أبي طالب ويضيف أن مدفنه بأكلو ب (سوس) الأقصى بين ماسة، وأنه مشهور هناك يزار. ورجح البعض سنة 445هـ كتاريخ لوفاة واجاج. وهو ترجيح يمكن قبوله على اعتبار أنه لو عاش بعد سنة 445هـ، لكان له لقاء مع تلميذه عبد الله بن ياسين خاصة بعد فتح المرابطين لمدينة سجلماسة سنة 446هـ. انظر : ابن خلدون، *العبر*، م 6، ص. 376 ـ 377.

100 ـ عن موقع رباط نفيس انظر الخريطة التي أنجزها أحمد التوفيق، وأرفقها بتحقيقه للتشوف إلى رجال التصوف، وكذلك هامش رقم 28 في صفحة 90 من نفس المصدر.

وفي أحد شهور عام 430هـ / 1039م، وصل يحيى بن إبراهيم إلى الرباط المذكور، وسلم الرسالة لصاحبها. فقرأها واجاج على تلامذته، ثم انتدب منهم عبد الله بن ياسين لمرافقة الأمير لبلاد صنهاجة.[101]

هكذا يتحدث أصحاب شهاداتنا المصدرية[102] عن لقاء وحوار القيروان.[103] ويبدو واضحا أن شيخ المالكية أبا عمران الفاسي قد احتل مقعدا بارزا في الرواية ؛ وفي المقابل تظهر القبائل الصنهاجية غارقة في الجهل بواجباتها الدينية.

وإذا اعتقدنا في هذه اللوحة التي ترسمها المصادر، كيف لنا أن نفهم ونستوعب أقوال نفس المصادر عن انتشار الاسلام بين صنهاجة اللثام منذ القرن الثالث الهجري(9م)، وكيف لنا أن نقبل ادعاءاتها المتعلقة بجهاد زعماء وشيوخ القبائل الصنهاجية! وتأخذ المسألة مظهرا مثيرا حينما نعلم أن الأمير الصنهاجي يحيى قد شرق برسم الحج، وفي نفس الوقت كان أميرنا جاهلا بواجبات دينه ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا. فكيف ـ إذن ـ أدى الأمير تلك الفريضة؟

إن محاولة تذويب هذه التناقضات الصارخة، لابد وأن تستحضر مرحلة الصراعات المذهبية العنيفة ـ التي عرفتها منطقة بلاد المغرب وخاصة إفريقية فيما

---

101 ـ البكري، ص. 165، ابن أبي زرع، ص 123.

102 ـ البكري، وصاحب الاستبصار، وابن الأثير، وابن عذاري، وابن أبي زرع، وابن السماك، وابن خلدون.

103 ـ إن تمركز فقهاء المذهب المالكي بإفريقية، وامتحان رجالاته من طرف السلطة الأغلبية ثم الشيعية، جعل مدينة القيروان تكتسب شهرة واسعة في الغرب الاسلامي كقاعدة للمذهب المالكي، وذلك منذ القرن 3هـ / 9م. وهذا ما يفسر توقف الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم الجدالي بالمدينة حوالي 429هـ / 1037م، للأخذ عن شيخ المالكية بها، أبي عمران الفاسي. كما أن وجود مدينة القيروان في طريق عودته من الحج، وخضوعها لأسرة صنهاجة (آل زيري)، يضيف عاملين مشجعين على توقف الأمير بها. وعن خلفيات لقاء القيروان وما يثيره من أسئلة، انظر الدراسة القيمة التي أنجزها إبراهيم القادري بوتشيش : خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج (حوالي 427هـ). في : أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات 5، جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الانسانية المحمدية ـ المغرب، مطبعة فضالة، 1993. ص 247 ـ 260.

بين القرن الثاني ومطلع الخامس للهجرة [104]، وما ترتب عنها من معاناة رجالات المذهب المالكي، ومقاساتهم المحن الشديدة[105] قبل أن يحققوا انتصارهم النهائي على المذاهب والنحل الاسلامية الأخرى في مستهل القرن 5هـ / 11م.[106]

كما أن هذا الاستحضار، يستدعي الوقوف عند الخلفيات الكامنة وراء تعلق أهل بلاد المغرب بالمذهب المالكي وأعلامه، وكيف أصبح هؤلاء الاعلام ـ الذين امتحنتهم السلطة ـ أبطالا حقيقيين في نظر المجتمع والفئات المتنورة.

وحين تحصيلنا وإلمامنا بمجموع العوامل المحيطة بهذه القضية، سواء على المستوى التاريخي أو النفسي، فلن نستغرب ـ إذ ذاك ـ تزوع أصحاب مصنفات طبقات المالكية إلى إحاطة أعلام المذهب بكل أنواع التقدير والإجلال، إكراما لهم، واعترافا بدورهم في نشر المذهب المالكي وذيادهم عنه.[107]

ففي هذا الإطار ـ إذن ـ، ينبغي استحضار لقاء القيروان بين شيخ المالكية أبي عمران الفاسي والأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم. والمصادر التاريخية

104 ـ ابن خلدون، العبر، مجلد 7، ص. 36 ـ 72. ويؤكد عباس الجراري أن الغرب الاسلامي قد تعرف منذ القرون الهجرية الأولى على جل المذاهب والتيارات الفكرية السياسية الاسلامية، وذلك قبل أن يختار الاتجاه السني، والمذهب المالكي منه على الخصوص. انظر :
عباس الجراري، أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب. في : ندوة الإمام مالك، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، فاس، أبريل 1980. الجزء 1، ص. 177.

105 ـ عن محنة فقهاء المالكية سواء في عهد الأغالبة وفقهائهم الأحناف، أو في عهد الفاطميين الشيعة، انظر : ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 268 ـ 269، 281 ـ 288. وكذلك : عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. بيروت : 1965 [تحقيق أحمد بكير محمود]. الجزء 4، ص. 62.

106 ـ مع بداية القرن 5هـ / 11م، لم يعد مكان لغير المذهب المالكي في جل ـ إن لم نقل كل ـ مناطق الغرب الاسلامي، ومنذئذ ارتبط مصير المذهب بمصير ومستقبل المنطقة رعية وحكاما. انظر : ابن عذاري، ج 1، ص 288. ابن خلدون، المجلد 6، ص 270، 305، 325.

107 ـ عن أسباب تعلق أهل الغرب الاسلامي بالمذهب المالكي وكيفية انتشاره. انظر :
ـ عباس الجراري، أسباب انتشار المذهب المالكي...، جزء 1، ص. 169 ـ 208.
ـ عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الاسلامي، المغرب ـ الدار البيضاء : منشورات عكاظ، 1987، ص 27 ـ 38.

المغربية على اختلاف أنواعها - التي تناولت الحدث - كانت تصدر عن هذه الخلفية.

على أنه إذا كان الفقيه أبو عمران الفاسي يحتل تلك المكانة البارزة عند أهل بلاد المغرب ومثقفيهم، وهذا ما نلمسه بوضوح في صيغة الحوار ؛ فإن ذلك لا يعني أن صنهاجة كانوا على تلك الحالة من الجهل التي خلعها عليهم لقاء وحوار القيروان سنة 429هـ / 1037م. فقد كان تواضع وتودد الأمير الصنهاجي أمام أبي عمران بالشكل الذي سجلتهُ المصادر، تواضعا وتوددا يعكس - بوعي أو بغير وعي - مكانة الفقيه لدى أصحاب مصادرنا، أكثر مما يعكس جهلا فظيعا بتعاليم الاسلام وشرائعه لدى صنهاجة اللثام.

فكما أبصرنا سابقا، كان الاسلام يعمل في صنهاجة منذ قرنين على الأقل قبل لقاء القيروان. وليس من محض الصدفة، أن يثمر انتشاره بينهم في مستهل القرن 5هـ / 11م، سُلوكا قارا وتقليدا راسخا لدى شيوخ وزعماء صنهاجة، والمتمثل في قيامهم بأداء فريضة الحج.[108]

والذي لا يعرف ولا يحفظ من الكتاب والسنة شيئا، كيف له أن يقصد فقيها من أعلام الفقه المالكي بإفريقية ويعرفه، وكيف أمكنه القيام بفريضة الحج، وعلى أي أساس كان يمارس الجهاد ضد السودانيين الوثنيين!؟

وسيعرض لنا من الأمور لاحقا ما ينفي الانطباع الذي نخرج به عن صنهاجة من خلال لقاء القيروان كما صوره أصحاب مصادرنا.

ومما لاشك فيه، أن معرفة صنهاجة اللثام بالاسلام والثقافة العربية الاسلامية عند بداية القرن 5هـ / 11م، كانت متواضعة. على هذا المستوى، فإن

108 - حسب البكري وابن عذاري وابن أبي زرع، يتهيأ لنا أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي قد أدى فريضة الحج لوحده. والحقيقة غير ذلك، وهذا ما يتأكد لنا مع رواية ابن خلدون (المجلد 6، ص 373)، التي على الرغم من تأخرها تبدو أكثر دقة وأقرب للواقع من غيرها. ذلك أن صاحب العبر يشير إلى أن الأمير خرج لقضاء فريضته في رفقة من رؤساء قومه، مما يعني أن الركب الحجي للأمير، كان يضم عدداً هاما من أعيان صنهاجة : شيوخ ورؤساء، وخدم، وعبيد، ويُفترض أن يصحبهم نفر للحراسة.

لقاء القيروان قد عكس جانبا مهما من القضية، ولربما هذا ما أرادت الشهادات المصدرية أن تقنعنا به ليس إلا.[109]

2 ـ عبد الله بن ياسين وانطلاق الحركة المرابطية

بعدما عرض واجاج بن زلو اللمطي شيخ رباط نفيس على طلبته أمر يحيى ابن إبراهيم الجدالي، انتدب منهم عبد الله بن ياسين الجزولي لمرافقة الأمير إلى صحراء صنهاجة. وقد قبل الطالب عرض شيخه دون تردد، وربما أظهر حماسا حسبما يستشف من رواية صاحب القرطاس.[110]

وما تحت أيدينا من معلومات مصدرية، لا يسمح لنا كفاية باستكشاف شخصية عبد الله بن ياسين وتكوينه الثقافي. ويدلنا انتماؤه القبلي (جزولة) على أنه من أهل سوس ؛ وبحكم العلاقات التجارية القديمة بين المنطقة وبلاد السودان، يمكننا القول إن الصحراء كمعطى جغرافي وبشري ليست غريبة عنه.[111]

دخل الأندلس في عهد ملوك الطوائف (399هـ ـ 480هـ)، وأقام بها سبع سنين، حصّل خلالها على علوم كثيرة حسب تعبير ابن عذاري.[112] ويظهر أنه أخذ عن عدد من فقهاء المالكية بالأندلس، بيد أننا لا نعرف منهم أحدا.

ولا ريب أن فترة إقامته بالعدوة، مكنته من الوقوف على الوضعية المزرية، التي أصبح عليها المسلمون بالأندلس، نتيجة الفوضى السياسية والاجتماعية،

---

109 ـ هناك عدة أسباب موضوعية حالت دون تطور الاسلام والثقافة العربية الاسلامية بسرعة في المنطقة، وجعلت مسيرتهما بطيئة، وذلك على الرغم من مجهودات صنهاجة بهذا الصدد (مثل عملهم على جلب الفقهاء لبلادهم وسفرهم للعلم الخ). ونرى في قساوة طبيعة الصحراء، وغط عيش أهلها (الترحال)، واختلاف اللغة، وقلة الحواضر، أسبابا رئيسية لهذه الحالة.

110 ـ ابن أبي زرع، ص. 126.

111 ـ ابن خلدون، المجلد 1، ص 99. المجلد 6، ص. 320 ، 577. البكري، ص. 165.

112 ـ البيان المغرب، ج 4، ص. 10. ابن السماك، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الرباط، 1936. [اعتنى بنشره سعيد علوش]. ص. 10.

التي عمت البلاد بعد انهيار الحكم المرواني ثم العامري عند نهاية القرن 4هـ / 10م.

ونخال عبد الله بن ياسين قد سمع أو وقف بنفسه على جانب هام من تلك الصراعات الدموية بين المسلمين بالأندلس، وعلى مؤامرات الأمراء وتنازعهم حول السلطة، وتحالف بعضهم مع المسيحيين ضد إخوانهم المسلمين. كما أنه لابد وأن يكون قد وقف على جانب من تلك المظاهر الاجتماعية والأخلاقية المشينة، التي برزت بحدة في سلوك المجتمع الأندلسي إذ ذاك.[113]

وهذه الحالة المؤلمة لواقع المسلمين بالأندلس، التي عايش عبد الله بن ياسين جزءا منها، لابد وأن تترك في نفسيته - وهو الرجل المتصلب في دينه - آثارا عميقة. ويحق لنا أن نتساءل بهذا الصدد، عما إذا كان ذلك الواقع الأندلسي برعونته ومعاناته، قد شكل الحافز العميق الذي دفع عبد الله بن ياسين للانزواء في رباط نفيس بعد عودته للمغرب.

كما ألمعنا في تساؤلنا، فإن عبد الله بن ياسين بعد عودته إلى المغرب - الذي لم يكن بأحسن حال من الأندلس -، التحق برباط نفيس وأصبح من تلامذة شيخ الرباط ومؤسسه، واجاج بن زلو اللمطي. وكما يذكر ابن الزيات التادلي، فقد كانت "دار المرابطين" مُعدة "لطلبة العلم وقراء القرآن".[114]

وبالنظر إلى قرب رباط نفيس من مجال برغواطة[115]، وتجربة واجاج ابن

---

113 - البيان المغرب، ج 1، ص. 272. ج 2، ص. 266 - 280. ج 3، ص. 49 ، 81 ، 97.

114 - راجع هامش رقم 99.

115 - يقع مجال برغواطة في منطقة تامسنا فيما بين وادي أبي رقراق شمالا ووادي أم الربيع جنوبا، وقد ظهرت إمارة برغواطة حوالي عام 125هـ، وتم القضاء النهائي عليها سنة 543هـ. وكان أهل الإمارة يأخذون بمعتقدات منحرفة عن الاسلام، الشيء الذي جعلهم مستهدفين من طرف جل الوحدات السياسية في الغرب الاسلامي، خاصة المرابطين. انظر الناصري الذي يلخص جل الروايات التاريخية المتعلقة بهم، وراجع تعليقنا في هامش رقم 152.
أحمد ابن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى. الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954 - 1956، ج 2، ص. 14.

زلو في جهادهم، لا يستبعد أن تكون "دار المرابطين"، معدة لطلب العلم ومجاهدة نحلة البرغواطيين المنحرفة عن التعاليم الاسلامية.[116]

مجموع الاعتبارات المتقدمة، تفسر لنا عدم إشفاق الفقيه السوسي عبد الله ابن ياسين على نفسه من دخول الصحراء.[117] كما أنها تسلط الضوء على بعض الحوافز التي كانت تعتمل في تفسية الرجل وهو يرافق الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الصحراء عام 430هـ / 1038م ؛ وذلك بهدف تبصير صنهاجة في أمور دينهم، وتعميق معرفتهم بالشريعة الاسلامية. وإذا كان الفقيه السوسي قد لاحظ أثناء إقامته بالأندلس، أن جل أمراء البلاد كانوا من طبقة الفقهاء والقضاة، فلماذا يرفض أن يكون إماما وأميرا لصنهاجة في نفس الآن.

ويبدو أن حماس عبد الله بن ياسين، قد دفعه لمباشرة مهمته بمجرد وصوله لديار جدالة. وكان أول ما لفت انتباهه، زواج رؤساء وشيوخ القبيلة بأكثر من أربع نسوة حرائر، فاستنكر ذلك، وطالبهم بلزوم ما حلّله الشرع. واستمر فقيهنا بين ظهراني جدالة وغيرها من قبائل صنهاجة، يعلمهم ويبين لهم أصول دينهم، وينهاهم عما هم عليه من المنكرات. وتدريجيا، أصبح الإمام المصلح، القيِّم على دينهم والمرجع في أمور حياتهم.

---

116 ـ يبقى هذا الرأي، الذي يأخذ به كذلك يوسف كيوك (Histoire de l'Islamisation..., pp. 36 - 40)، مجرد اجتهاد تسنده بعض تطورات الحركة المرابطية. ويظهر أن رباط نفيس ـ شأن رباط شاكر ـ، يختلف في طبيعة دوره عن رباطات الساحل المتوسطي، التي رصد لنا البكري الكثير منها، أو رباط سلا الذي حدثنا عنه ابن حوقل (ص. 82). فالأولى كما يؤكد ابن الزيات التادلي كانت لطلب العلم لاغير، أما الثانية فقد كانت معدة للجهاد وحماية ثغور الاسلام من هجومات المسيحيين. ويعضد هذا الرأي الأخير، أنه لم تكن لرباط نفيس الامكانيات المادية والبشرية التي تقدره على جهاد برغواطة.

117 ـ راجع هامش رقم 86. ومن جانبنا، فنحن نتفهم خوف وتهيب طلبة أبي عمران الفاسي من دخول الصحراء مع يحيى بن إبراهيم الجدالي ؛ ولا نرى داعيا ـ بهذا الصدد ـ لإثارة الشكوك حول تبريرهم ذاك. انظر وقارن مع ما جاء في مقال إبراهيم القادري بوتشيش : خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج، ص. 259.

غير أن تشدد عبد الله بن ياسين في تطبيق التعاليم الاسلامية، عرّضه في بداية أمره لنقمة فقهاء ورؤساء صنهاجة.(118) ويلخص البكري سبب الحادث وتبعاته، بقوله : "إنهم [يقصد صنهاجة] وجدوا في أحكامه بعض التناقض فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكّم مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر اينتكّوا فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدّموا داره وانتهبوا ما كان فيها من أثاث".(119)

والمثير في هذه الواقعة ـ التي نجهل تاريخها ـ(120)، أن صنهاجة بجهلهم المزعوم كما صوره لقاء القيروان، قد أصبحوا بعد أقل من خمس سنوات من وصول عبد الله بن ياسين إليهم، متمكنين من أصول الفقه المالكي، بل وأصبحوا قادرين على تتبع سقطات فقيه درس بالأندلس سبعة أعوام، وتتلمذ في رباط نفيس على يد أحد أقطاب الفقه والتصوف بالمغرب : واجاج بن زلو تلميذ أبي عمران الفاسي شيخ المالكية بإفريقية.

على إثر ثورة جدالة وما ترتب عنها، فزع عبد الله بن ياسين إلى شيخه واجاج، ثم عاد بأوامر مكنته من استرجاع هيبته وسلطته على جدالة.(121) والسؤال الذي يفرض نفسه بإزاء هذه التطورات، كيف أمكن لواجاج أن يصدر أوامر من رباط نفيس، ومع ذلك وجدت قبولا وخضوعا من قبل صنهاجة؟

إننا أمام قضية تاريخية على غاية من الأهمية. ويظهر أن لها علاقة وثيقة بطبيعة وظيفة رباط نفيس، كما أن لها علاقة بدور دعاة وفقهاء المغرب في انتشار الاسلام بصحراء صنهاجة اللثام وبلاد السودان، وكيفية تحصيل ذلك. غير

---

118 ـ البكري، ص. 165. ابن عذاري، ج 4، ص. 8. ابن أبي زرع، ص. 124.
119 ـ البكري، ص. 165 ـ 166.
120 ـ نرجح وقوعها فيما بين سنتي 431 و434هـ / 1039 ـ 1042م.
121 ـ البكري، ص. 166. ويخبرنا ابن عذاري (ج 4، ص. 9) أن عبد الله بن ياسين لم يتوجه بنفسه إلى شيخ رباط نفيس، وإنما كاتبه فقط، وأعلمه في الرسالة بما جرى له مع جدالة.

أن البكري كجغرافي، لم يكن يرغب في مساعدتنا وتوضيح ملابسات وحيثيات القضية[122]، والمصادر اللاحقة التزمت الصمت إزاءها.

ونستشف من خلال كلمات رسالة واجاج بن زلو إلى رؤساء جدالة، وصيغة خطابه إليهم، أن شيخ رباط نفيس، كان يتمتع بمكانة رفيعة وسلطة روحية كبيرة لدى زعماء جدالة. ومثل هذه السلطة المعنوية، تترجم إلى حد بعيد نوعية علاقة فقيه بطلبته، الشيء الذي يوحي لنا بأن زعماء وشيوخ وطلبة صنهاجة، كانوا يتتلمذون على يد واجاج. وأن شيخ الرباط كان يتعهدهم بالرعاية في أمور دينهم ويرسل إليهم تلامذته ليعلموهم ويفقهوهم. ولا نستبعد بهذا الصدد، أن تكون بين شيخ الرباط وقبائل صنهاجة، عهُود ومواثيق، تنظم علاقتهما في مجال التعليم. من ثمة، نفهم التجاء عبد الله بن ياسين إلى شيخه، لتحكيمه فيما جرى له مع جدالة، ونتبين كذلك، خلفيات ذلك التأثير البالغ، الذي تمارسه كلمة واجاج بين صنهاجة وخاصة جدالة.[123]

وإذا كان البكري وابن عذاري[124]، يتفقان في تأكيد اتصال عبد الله بن ياسين بشيخه واجاج على إثر ثورة جدالة، فإن صاحب روض **القرطاس** وإن اتفق معهما في رصد واقعة تشريد الشيخ المصلح، فإنه لا يشير إلى مسألة اتصال عبد الله بن ياسين بشيخه، ويذهب بالأحداث في اتجاه آخر.[125] حيث يذكر أنه بعد

---

122 ـ تلمع إلى عبارته : "إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها". ص. 165.

123 ـ اختلاف الروايات التاريخية حول الشخص الحقيقي الذي جلب عبد الله بن ياسين لديار جدالة : هل هو الجوهر بن سكّم أو يحيى بن إبراهيم الجدالي، يحمل في طياته دلالة تساير ما ذهبنا إليه من اتصال عدد من شيوخ وطلبة صنهاجة بواجاج. انظر : البكري، ص. 164. ابن عذاري، ج 4، ص 7. ابن أبي زرع، ص 122. ابن الأثير : الكامل في التاريخ. بيروت، دار صادر، 1965. ج 9، ص 619. وعدم إشارة القاضي عياض السبتي أثناء ترجمته لعبد الله بن ياسين إلى لقاء القيروان يحمل أكثر من دلالة في هذا الاتجاه. انظر : ترتيب المدارك، ج 4، ص 780.

124 ـ كان مؤلف البكري من بين مصادر ابن عذاري عن بداية الحركة المرابطية. انظر على سبيل المثال : ج 4، ص 11.

125 ـ ابن أبي زرع، ص 125 ـ 127.

نقمة جدالة على شيخهم وعزلهم له، أعرض عنهم عبد الله بن ياسين، ورغب في الذهاب إلى بلاد السودان لتعميق معرفة السودانيين بالإسلام. غير أنه تراجع في آخر لحظة عن رأيه، فابتنى - بإيعاز من يحيى بن إبراهيم الجدالي - رباطا[126] قصد التعبد، انزوى فيه مع نفر من جدالة. فتسامع الناس بأخباره، ثم أخذوا يتواردون عليه. وبعد ثلاثة أشهر، وجد الإمام عبد الله بن ياسين نفسه محاطا بمئات الطلبة من أشراف صنهاجة.[127]

وانعزال الفقيه السوسي عن الناس في الرباط، يذكرنا برباط تفيس، ويظهر أنه اتخذ منه نموذجا احتذى به في تسيير أمور رباطه. هكذا، أخذ عبد الله بن ياسين يفقه المنثالين عليه، ويشحذ عزائمهم. ولما أحس في نفسه القدرة على مواجهة من خالفه من القبائل الصنهاجية، خرج بأصحابه المرابطين برابطته، وتمكن في نهاية العقد الرابع من القرن الخامس الهجري (11م) - وربما بعد ذلك ببضع سنوات -، من إخضاع جَدالة ولمتونة ومسوفة على التوالي.[128] ثم تمت مبايعته كإمام لصنهاجة، بينما احتفظ يحيى بن إبراهيم الجدالي بمنصب إمارة الجند. وقد كان عبد الله بن ياسين في حقيقة الأمر، صاحب الحل والعقد، وإليه تُرد الأمور الهامة في سياسة الحلف.[129]

126 - لقد أعيا الباحثين تحديد موقع رباط عبد الله بن ياسين. انظر محاولة عصمت دندش : دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1988. ص70. وقارن مع الدراسة الميدانية التي أنجزتها بعثة علمية، أرسلها معهد إيفان (IFAN) للمنطقة للتحقيق في الموضوع :

Moraes Farias, P. F., "The Almoravids : some questions concerning the character of the movement", B. IFAN B, XXX (1967), pp. 749-917.

انظر على الخصوص الفصل الثالث من هذا البحث المشار إليه. ويمكننا في نفس الدراسة أن نتتبع الاشتقاق اللغوي والاصطلاحي لكلمات : "الربط" و "الرباط" و "المرابطون"، وبهذا الصدد نلفت الانتباه إلى محاولات جان دوفيس وإيفان هربك في موسوعة : تاريخ إفريقيا العام :

- Les Almoravides, Vol. III, Ch. 13, pp. 374-375.

127 - يحدد ابن أبي زرع (ص 125) عددهم في نحو ألف رجل. وإذا أخذنا بعين الاعتبار كونهم من أشراف صنهاجة، يجوز لنا أن نقدر عدد التابعين لابن ياسين أثناء المرابطة بأضعاف ذلك العدد.

128 - ابن أبي زرع، ص 126،125.

129 - ابن أبي زرع، ص 127.

ونرى أن السرعة والسهولة اللتين تمت بهما عملية استيلاء ابن ياسين على بلاد الصحراء، لا تعكسان دهاءا سياسيا من جانبه، أو تفوقا لقوته العسكرية عدة وعددا، بقدر ما تعبران عن استعداد ورغبة القبائل الصنهاجية في الانضواء تحت لواء زعامة روحية دينية. وكان هذا الاستعداد وتلك الرغبة لدى صنهاجة يعملان في اتجاه اشباع حسها الديني المتعطش، ويعكسان لنا في نفس الوقت، تطلعها الدائم ورغبتها العميقة في تجاوز الاحباطات المتتالية، التي عرفتها التجارب السياسية الصنهاجية.

وليس من محض الصدفة، والحالة هذه، أن تسارع القبائل الصنهاجية إلى التوبة ومبايعة عبد الله بن ياسين كإمام، والإقرار له بالسمع والطاعة، بمجرد بداية تحركاته العسكرية وخروجه بالمرابطين من رابطته لتمهيد الصحراء.[130]

وبانقياد القبائل الصنهاجية للفقيه المصلح، أمكنها تحقيق المطلب الأول (إشباع حسها الديني المتعطش) بدون كبير عناء، غير أنها لم تتمكن من تحقيق وحدتها السياسية. ذلك أن ضعف تجربة الإمام في هذا المجال، جعلـه يتورط في النزاعات الجانبية بين القبائل الصنهاجية حول زعامة الحلف، فأظهر ميولا وانحيازا للمتونة على حساب جدالة.[131] ونتيجة لهذا السلوك، فقد كان طبيعيا أن يفقد مساندة ودعم قبيلة جدالة لمشروعه السياسي بالمغرب.

لاريب أن هناك أسبابا عميقة تفسر اختلاف موقف الإمام من جدالة ولمتونة، وهي قطعا غير تلك التي أوردها صاحب **روض القرطاس**.[132] ولو

130 ـ نفس المصدر، ص 126.

131 ـ يدعونا الموقف للتساؤل عن دور مسوفة في الأحلاف الصنهاجية بالصحراء. ذلك أن المصادر، لا تتحدث عن زعامات مسوفية داخل الأحلاف. ولن تبرز أسماء مسوفية قيادية إلا مع يوسف بن تاشفين أثناء تمهيده للمغرب. انظر إشارة ابن أبي زرع (ص 138) للقائد عمر ابن سليمان المسوفي. ونعتقد أن المسألة لا علاقة لها بقوتهم العددية، وإنما بعدم تمركزهم في المجال. الشيء الذي قلل من أهميتهم وثقلهم السياسي داخل الأحلاف الصنهاجية. في المقابل، منحهم هذا الوضع فرصا أكبر لاحتكار الوساطة التجارية فيما بين ضفتي الصحراء.

132 ـ يعلل ابن أبي زرع انحياز عبد الله بن ياسين للمتونة، بكونها كانت "أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا"، لذلك كان الإمام "يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة". انظر : روض القرطاس، ص 126.

راجع ابن أبي زرع ذاكرته، لوجد أن تعليله الذي برر به انحياز عبد الله بن ياسين للمتونة، ينسحب على جدالة أكثر مما ينسحب على لمتونة. فجدالة هي التي جلبت ابن ياسين لصحراء صنهاجة، والرفاق (المرابطون) الأوائل للإمام في الرباط كانوا من جدالة. وأخيرا وليس آخرا، كانت جدالة من أولى القبائل الصنهاجية التي انقادت للإمام إبان تحركاته العسكرية لتمهيد الصحراء، وعلى أكتافها تمكن من زعامة الحلف.

وإذن، علينا أن نقلب الصورة التي تحاول المصادر إقناعنا بها، ولفهمها يكفي أن نقول، إن تلك الاعتبارات التي أتينا على رصدها، كانت كافية لتحفز إمام صنهاجة للعمل على التخلص من جدالة وديونها الثقيلة إزاءه، حتى لا تحرجه أو تضايقه في اتخاذ القرارات.

ويبدو أن الحوافز والعوامل التي كانت تدفع الإمام لإقصاء جدالة متعددة ومتداخلة، فهو لم ينس ما فعلته به أثناء نقمتها عليه وتشريدها له في بداية أمره بالصحراء. بموازاة مع ذلك، كان عبد الله بن ياسين مقتنعا بأن تحلّق رؤساء جداليين حوله في زعامة الحلف الصنهاجي، لن يساعده في الاستبداد بالسلطة، إذ بسبب هذا المشكل هجرته وشردته جدالة في بداية أمره.

ونخال عبد الله بن ياسين قد انساق وراء نزواته في الاستبداد بالسلطة. وما تجمع حوله المصادر من ليونة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، وتجرؤ الإمام على ضربه وتأديبه[133]، يساعدنا في تفهم موقف عبد الله بن ياسين من جدالة المتصلبة في دينها، ولكن كذلك في أمور دنياها.

وقد كان بإمكان جدالة أن تترك الإمام يستبد بالأمر، وتنقاد له بدون كبير عناء، لو أنه أظهر اهتماما ببلاد السودان، ووجه سياسة الحلف الصنهاجي في هذا الاتجاه.[134] ونعتقد أن السبب العميق في الخلاف بين زعامة الحلف الصنهاجي وجدالة، إنما يكمن في تباين وجهات نظرهما حول السياسة التي ينبغي

---

133 ـ البكري، ص. 166. ابن عذاري، ج 4، ص 12. ابن أبي زرع، ص 127.

134 ـ راجع ملاحظتنا حول مسألة انتقال رئاسة الحلف الصنهاجي من لمتونة إلى جدالة. ص40.

أن ينهجها الحلف تجاه جيرانه في الشمال والجنوب : هل يوجه الحلف اهتمامه لبلاد المغرب أم لبلاد السوادن؟

وكما يتضح من خلال الشهادات المصدرية، فقد كانت زعامة الحلف الصنهاجي منشدة للشمال أكثر منه إلى الجنوب. ويبقى أهم عمل سياسي قام به الإمام وخلفاؤه اتجاه مملكة غانة وبلاد السودان بصفة عامة، هو استرجاعهم لمدينة أودغشت سنة 446 هـ / 1054م.[135] وعلى الرغم من انتصار المرابطين واسترجاعهم للمدينة، نجدهم يتخلون عنها، ويتوجهون - بدون جدالة - نحو الشمال : سجلماسة وسوس وتامسنا.

ونعتقد أن عبد الله بن ياسين بتوجهه نحو المغرب الأقصى، كان يريد أن يظهر لفقهاء المغرب - خاصة منهم رفقاءه أيام التتلمذ في رباط نفيس - ثمرة أعماله.[136] وفي نفس السياق، يبدو لنا توجهه نحو تامسنا بهدف القضاء على نحلة البرغواطيين، وكأنه مخطط مرسوم في ذهنه حتى قبل استرجاع أودغشت. وفي هذا ما يفسر مغازلته لطلبة وفقهاء مصمودة بالهدايا بمجرد تمهيده للصحراء، وذلك على أمل كسبهم لصفه أثناء المواجهة المقبلة.[137] ومما لاشك فيه، أن القضاء على هذه النحلة المنحرفة عن الاسلام سيغبط، أو على الأصح سيحقق حلما طالما راود شيخه واجاج بن زلو، الذي كان له دور كبير - كما رأينا سابقا - في استرجاع هيبته وسلطته بالصحراء.

وعلى عكس ما توهمنا به بعض الشهادات المصدرية، فقد كان ابن ياسين يعرف الشيء الكثير عن برغواطة ومعتقداتها[138]، كما كان يعي مدى قوتها

---

135 - البكري، ص. 168. ابن عذاري، ج 4، ص13. ابن أبي زرع، ص 127-128. ابن خلدون، المجلد 6، ص 376.

136 - انظر مضمون نفس الاحالات في الهامش السابق. ونشدد هنا أنه ليس من قبيل الصدفة أن يقوم واجاج بن زلو وفقهاء سجلماسة بمراسلة عبد الله بن ياسين وحثه على فتح سجلماسة. كما أنه ليس من قبيل الصدفة، أن يُخرج إمام صنهاجة خمس ما استولى عليه بسجلماسة عام 447هـ / 1055م، ويوزعه على فقهاء سجلماسة الذين راسلوه وغيرهم من فقهاء درعة.

137 - ابن أبي زرع، ص 126.

138 - هذا ما توحي به - مثلا - شهادة ابن أبي زرع (ص 130). بيد أن الواقع غير ذلك، فابن عذاري (ج 4، ص 10) يذكر أن عبد الله بن ياسين عند عودته من الأندلس إلى المغرب، مر بتامسنا. ثم إن شيخه واجاج لابد وأن يكون قد حدث طلبته - ومن بينهم ابن ياسين - بتجربته الجهادية ضد معتقدات برغواطة. وفضلا عمّا تقدم، فابن ياسين الجزولي من أهل المنطقة، ويبدو من المستبعد جدا ألا يحيط علما بما يجري حوله.

العسكرية[139]، لذلك نراه ينزل بكل ثقله العسكري لمواجهتها، وذلك بعد فتحه لسجلماسة وسوس. غير أن هذه المحاولة، انتهت باستشهاده ـ وهو الذي يؤمن بضرورة تخلف الأمير أثناء المواجهات العسكرية ـ [140]، الشيء الذي يعكس مدى قوة وحدة المواجهة بين المرابطين وبرغواطة.[141]

ما الذي جعل عبد الله بن ياسين والأمراء اللمتونيين المتحلقين حوله يوجهون اهتمامهم نحو المغرب الأقصى، ويديرون ظهرهم لبلاد السودان؟

فضلا عن الأسباب الواضحة مثل انتمائهم للمنطقة (بلاد المغرب) ثقافيا ودينيا وعرقيا، أو تلك التي نوهنا بها سابقا، يبدو أن إمام صنهاجة حينما فكر في تمهيد المغرب الأقصى ـ وأظهر رغبة عميقة في القضاء على المعتقدات المنحرفة عن الاسلام ـ، كان يعلم أنه سيكون مساندا ليس فحسب من صنهاجة الصحراء الذين يتزعمهم، وإنما كذلك من قبل عدد كبير من الفقهاء ومن وراءهم من طلبة وقبائل.

كما أن قبوله ومخاطراته بمنازلة برغواطة، وهي النحلة التي طالما أزعجت المسلمين منذ القرن الثاني الهجري (8م)، دون أن يتمكنوا من القضاء عليها، سيجعله يحظى بدعم مادي ـ أو على الأقل معنوي ـ من طرف جميع المسلمين بالمغرب، حتى أولئك الذين يمكن أن يرفضوا زعامته السياسية.[142]

والمُسحة القدسية التي تضفيها الشهادات المصدرية على شخصية عبد الله بن ياسين ورفقائه الذين جاهدوا معه ضد برغواطة، إنما هي تعبير عن حقيقة

139 ـ يقدر ابن عذاري (ج 4، ص 10) قوة برغواطة العسكرية بأكثر من 23 ألفا ما بين فارس وراجل.

140 ـ نلمع إلى قصة تأديبه للأمير يحيى بن عمر اللمتوني. انظر : البكري، ص 166. ابن عذاري، ج 4، ص 12. ابن زرع، ص 127.

141 ـ ابن أبي زرع، ص 132.

142 ـ علينا أن نستحضر بهذا الصدد الطريقة السلمية التي كسب بها ابن ياسين قبيلة مصمودة، وكيف جعلها تساندة عمليا في حربه ضد برغواطة. انظر : ابن أبي زرع، ص 126. ابن عذاري، ج 4، ص 15.

مشاعر المغاربة إذ ذاك إزاء الزعامة المرابطية. وستتضخم تلك المشاعر خلال القرون اللاحقة بشكل مثير للغاية. وعلى هذا المستوى، تملك شهادات ابن أبي زرع قيمة تاريخية قصوى.(143)

ويمكننا أن ندرك عمق تلك المشاعر، إذا ما حاولنا تمثل الوضعية السياسية والاجتماعية المتدهورتين في المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن 5هـ / 11م، ثم حاولنا مقاربة موقف المغاربة من عبد الله بن ياسين، وهم يرون رجلا قادما مع أصحابه من الصحراء لهدم البدع والضلالات، ومستعدا للشهادة والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الاسلام ؛ في حين لم يكن للخلافتين الاسلاميتين : الأموية بالأندلس والفاطمية بإفريقية ثم بمصر، عمل جاد في هذا الاتجاه.(144)

ولا ريب أن عبد الله بن ياسين كان يحس بهذه المشاعر وهو يقصد برغواطة، في المقابل فإن التزام أية سياسة من الزعامة المرابطية تجاه مملكة غانة أو بلاد السودان بصفة عامة، تستلزم قبل كل شيء ضمان مساندة جدالة ؛ غير أن الإمام سبق وأن فقدهم بتخليه عنهم. على هذا الأساس، فإن أية محاولة يُمكن أن تستهدف بلاد السودان، لابد وأن تجبر الزعامة المرابطية على إعادة ترتيب البيت الصنهاجي حسب رغبة وتطلعات جدالة، وإلا فإن أية حملة عسكرية مرابطية تقصد غانة، ستذوب في الصحراء قبل أن تصل إليها. ولنا في ثورة

---

143 ـ سنأتي على تحليل الخلفية التي كان يصدر عنها ابن أبي زرع أثناء استعراضه لتطورات الحركة المرابطية.

144 ـ يلخص الناصري جل الروايات التاريخية المتعلقة بحالة المغرب الأقصى خلال هذه الفترة المضطربة. انظر : الاستقصا، ج 1، ص 200 وما بعدها، ج 2، ص 14ـ21.
ويظهر أن أمويي الأندلس والفاطميين، كانوا منشغلين عن برغواطة بمشاكلهم الخاصة وطموحاتهم السياسية والاقتصادية. أكثر من ذلك، لم يجد المروانيون بالأندلس حرجا في التعامل التجاري مع كل من إمارة نكور بالريف وإمارة براغواطة بتامسنا، وكلا الإمارتين كما نعلم، منحرفتان عن الاسلام. انظر : ابن عذاري، ج 1، ص 255. ج2، ص 234. ابن خلدون، المجلد 6، ص 228، 435، 444. المجلد 7، ص 36 ـ 72.

جدالة عام 448هـ / 1056م، وما ترتب عنها من سحق الجيوش المرابطية، ومقتل أميرهم (يحيى بن عمر) خلالها، حجة واضحة على ما نذهب إليه.[145]

وعلى افتراض استرجاع جدالة لمكانتها داخل الحلف الصنهاجي، من يضمن موافقتها على العمل العسكري تجاه غانة أو غيرها من مناطق بلاد السودان؟

إن معلوماتنا عن مستهل القرن الخامس الهجري وما بعده، لا تشير إلى أية محاولة من جانبها في هذا الاتجاه، بل على العكس من ذلك، تشهد على نشاط بشري واقتصادي دؤوب مع السودان المتواجدين على الضفة اليسرى من نهر السنغال، وهذا ما سمح بتطور سلطنة التكرور سياسيا واقتصاديا ودينيا.[146]

ويمكننا أن نؤكد، أنه باعتبار القوة التي ظهرت بها جدالة عام 448هـ / 1056م، كان بإمكانها لو أرادت غزو أو فتح مناطق من بلاد السودان لفعلت، ولتمكنت من السيطرة - بسهولة ودون مساعدة من الحلف الصنهاجي - على مَدينتي تكرور وسلي وغيرهما من المدن السودانية القريبة من مجالها.[147] غير أن ارتباطها العضوي (بشريا واقتصاديا) بالمناطق السودانية المجاورة لها، يمنعها من تبني الحل العسكري ؛ بل إن مثل هذه السياسة، لن تجلب لها سوى الدمار، خاصة بعد اندحار مدينة أودغشت كمركز تجاري.[148]

ولماذا يغامر عبد الله بن ياسين بمواجهة مملكة غانة، فهي قوية بجيشها[149]، والانتصار عليها شيء مستبعد جدا. وفضلا عما تقدم، فإن حكام

145 - البكري، ص 167 - 168. ونلفت الانتباه إلى أن المعركة دارت فوق أرض ومجال لمتونة، بعيدا عن مجال جدالة. الشيء الذي يعكس مدى جرأتها وقوتها. وقد اشتعلت هذه الثورة في وقت كان فيه عبد الله بن ياسين منشغلا بتمهيد سوس وأغمات.

146 - راجع ما قلناه عن التكرور خاصة في هامش رقم 42 و71.

147 - أثناء ثورة جدالة سنة 448هـ / 1056م، تحالف رئيس التكرور مع المرابطين ضد جدالة، ولاشك أنه لقي نفس المصير الذي لقيته الجيوش المرابطية. انظر : البكري، ص 168.167.

148 - عندما اندحرت أودغشت تجاريا وأصبح الطريق التجاري يمر عبر تغازة، اضطرت جدالة إلى استغلال نهر السنغال لتصريف ما تنتجه من ملح نحو السودان، الشيء الذي وطّد علاقاتها معهم. انظر الادريسي (ص2) عن كيفية تصريف ملح أوليل.

149 - يقدر البكري (ص 177) عدد جيش غانة آنذاك ب 200 ألف رجل.

غانة منذ مطلع القرن الخامس الهجري، كانوا مسالمين، وكانت لديهم رغبة أكيدة في انتشار الاسلام بين رعاياهم بالدعوة والكلمة الطيبة.[150] وإمام صنهاجة كان على علم بهذه الحالة، وقد عبر عن رغبته للمساهمة في تعميق معرفة السودانيين بالتعاليم الاسلامية حينما تم عزله في بداية أمره، غير أنه عدل عن رأيه بعد نجاح أمره للأسباب التي ذكرنا سابقا.

كل ما تقدم، يكشف لنا عن الظروف التي أحاطت بعبد الله بن ياسين، وهو يقود الجيوش المرابطية لفتح سجلماسة وسوس وتامسنا وغيرها من مناطق المغرب الأقصى التي يعرفها جيدا. ويظهر أن جهاد برغواطة كان يشغل باله أكثر من أي شيء آخر، إلى درجة أنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة التي أدب من أجلها يحيى بن عمر اللمتوني، فاستشهد في إحدى معاركه ضدهم سنة 451هـ / 1059م.[151]

3 ـ أبو بكر بن عمر يتبرأ من غزو مملكة غانة

بعد مقتل إمام صنهاجة، خلفه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني في قيادة المرابطين، فاستمر في جهاد برغواطة حتى "اذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا".[152] ويظهر أن حرب برغواطة قد استنزفت وأنهكت قوة الجيوش المرابطية، فعاد الأمير مسرعا إلى أغمات سنة 452هـ / 1060م ليسترجع أنفاسه. ولم يكد يستقر بالمدينة، حتى وصلته الأخبار باختلال أمر الصحراء وقيام جدالة ضد لمتونة، فعقد لابن عمه يوسف بن تاشفين أمر المغرب سنة 453هـ / 1061م،

150 ـ لو توجه المرابطون لغزو مملكة غانة، كيف يمكن أن نتصور موقف تجار بلاد المغرب من عبد الله بن ياسين وحملته، وهل سيؤيده الفقهاء والدعاة المسلمون، الذين رحبت بهم غانة، وسلمتهم مقاليد الأمور السياسية والإدارية للمملكة؟

151 ـ البكري، ص 168. ابن عذاري، ج4، ص 16. ابن أبي زرع، ص 132. في حين يحدد ابن خلدون (م6، ص376) تاريخ استشهاده في سنة 450هـ / 1058م.

152 ـ هذا ما يذكره ابن أبي زرع (ص 133)، بيد أن تراجع أبي بكر إلى أغمات بعد مقتل عبد الله بن ياسين وسليمان بن عدو الذي خلف الإمام في الأمور الدينية للمرابطين، يدلنا على أن المرابطين لم يحققوا انتصارا حاسما ضد برغواطة ومعتقداتها. وسيعود صاحب القرطاس وغيره للكلام عن غزو عبد المؤمن الموحدي لبرغواطة سنة 543هـ/ 1148.

واقتسم معه الجيوش المرابطية، ثم توجه إلى الصحراء لتهدئتها وإصلاح ذات البين بين القبائل الصنهاجية.(153)

لقد كانت عودة الأمير اللمتوني إلى الصحراء اضطرارية، ولا تعكس بأي حال اهتماما ـ سياسيا أو عسكريا ـ ببلاد السودان كما اعتقد بعض الباحثين.(154) وإذ نشدد على الجانب الاضطراري لهذه العودة، فلأنها كانت تهدف إلى محاولة استجماع قوة لمتونة ـ التي أنهكتها حرب برغواطة ـ والعمل على الحد من هجومات جدالة على مضاربها ليس إلا. وما يذكره ابن عذاري من أن الأمير أبا بكر عاد للصحراء ليأخذ بثأر قومه (لمتونة) من أعدائهم جدالة، يحيلنا على حساسية الموقف بين القبيلتين.(155)

بيد أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني، الرجل العارف بحيثيات الصراع بين لمتونة وجدالة، والذي مايزال يتذكر الانهزام الساحق للمرابطين أمام جدالة عام 448هـ / 1056م، كان يعرف أن لا قدرة له على حسم الموقف لصالحه. وبالتالي، لم يكن بإمكانه عند عودته للصحراء سوى الدفاع عن قومه.(156)

ولماذا لا يعمل سلميا على استمالة شيوخ وزعماء جدالة بتهدئة خواطرهم، في محاولة لكسبهم إلى صفه ؛ فالمشهور عن الأمير أبي بكر ـ كما يشهد صاحب القرطاس وغيره ـ أنه رجل كثير الورع لا يستحل قتال المسلمين وسفك دمهم، ولا يقاتل على الدنيا، وفوق ذلك كان مرهف الحس.(157)

153 ـ ابن أبي زرع، ص 134 ـ 135، 138. وانظر تعليقنا الآتي في هامش رقم 217.

154 ـ انظر :

- Cuoq J., Histoire de l'Islamisation..., p 41.

155 ـ البيان المغرب، ج 4، ص 20. ونشدد هنا على أن استعمال ابن عذاري لكلمتي "ثأر" و "أعداء"، لم يكن مجانيا. قارن مع رواية ابن خلكان التي أوردها الناصري، ج 2، ص 20.

156 ـ حتى وإن أعتبرنا البكري قد انتهى من تسويد مؤلفه قبل سنة 453هـ كما استنتج دوسلان، فستكون جدالة إلى نهاية سنة 452هـ، ما تزال محافظة على القوة التي انتصرت بها أثناء ثورة 448هـ. ذلك أنه بعد انتصارها "لم تعد للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة". انظر : البكري، ص 167.

157 ـ البيان المغرب، ج 4، ص 23. روض القرطاس، ص 134. ونستشف رهافة حسه من خلال الروايات التاريخية التي تتداول سبب تطليقه لزوجته زينب النفزاوية. ومفادها أنه حين عودته للصحراء، آثر فراقها على استصحابها معه، خوفا وإشفاقا عليها من شدة حر الصحراء وشظف العيش بها. انظر روض القرطاس، ص 134.

الدفاع عن مضارب لمتونة، والعمل على كسب جدالة سلميا، كان أقصى ما بمقدور الأمير تحقيقه أثناء عودته للصحراء عام 453هـ / 1061م. وحتى ابن أبي زرع الفقيه المتحمس للمرابطين، يدلنا على هذا الواقع، بخمود أسلوبه، وابتعاده عن الكلمات النرجسية التي عوّدنا عليها في التعبير عن انتصارات المرابطين. ذلك أنه لم يجد ما يشفي غليله، فبدا ذلك واضحا في أسلوبه حين قال : "وسار الأمير أبو بكر إلى الصحراء فهدنها وسكن أحوالها".[158] وهذه الكلمات الهادئة، تضمر أن الأمير لم يكن قادرا على قهر أو كسر شوكة جدالة. ولو حدث ذلك، لكان صاحب روض القرطاس سعيدا بتسجيله لنا.

لا غرو والحالة هذه، أن يلتجئ الأمير إلى خصاله ومؤهلاته الشخصية لحل مشكل جدالة باللين، حتى يتقي شرهم. وإذا كسبهم إلى جانبه، فسيكون قد نجح فيما فشل فيه شيخه عبد الله بن ياسين، وبذلك سيجمع كلمة صنهاجة على أساس أكثر قوة ومتانة. وبتحقيق هذا الهدف، حينئذ سيعود إلى المغرب الاقصى بقوة عسكرية وتجربة سياسية[159]، ستمكنانه ـ دون شك ـ من استئصال شأفة برغواطة ومن إخضاع زناتة المسيطرين على جل مناطق المغرب الأقصى.

على أن الإقامة الطويلة للأمير أبي بكر بالصحراء (453هـ ـ 465هـ)، وما آل إليه مصيره فيما بعد، يحملنا على الاعتقاد بفشل مهمته بالصحراء. حيث يظهر أنه لم يتوفق في الحد من نزاعات وصراعات القبائل الصنهاجية، خاصة فيما بين لمتونة وجدالة، ولم يحالفه التوفيق في رأب صدع الحلف. وبينما هو منشغل بالهموم المحلية لصنهاجة الصحراء، أخذت الأخبار تنثال عليه باستبداد

158 ـ روض القرطاس، ص 135. وقارن مع رواية ابن خلدون، العبر، المجلد 6، ص 377.

159 ـ لا شك أن التحركات العسكرية للأمير أبي بكر بالمغرب ـ التي دامت زهاء ثمان سنوات (446هـ ـ 453هـ) ـ، قد مكنته من الاطلاع والتعرف على أحواله، وعلى قوة وضعف قبائله. ومثل هذه التجربة ستجعله حريصا على جمع كلمة صنهاجة، وعلى عدم استنزاف قوتها بالصحراء، وذلك حتى يعود بهم إلى المغرب، وهو قادر على تمهيده. ولعل هذا ما قصده ابن خلدون حينما قال : "فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة وتلاقى أمره بالرحلة". *العبر*، المجلد 6، ص 337.

ابن عمه يوسف بن تاشفين بأمر المغرب، وأحس بيد خفية تعمل على عدم نجاح أمره بالصحراء.

ذلك أن يوسف الذي جعله الأمير أبو بكر خليفة له على المغرب عام 453هـ / 1061م، ونزل له عن زوجه زينب، استغل فرصة غياب وانشغال الأمير بمشاكل الصحراء، فأخذ يستبد بالسلطة ويؤلف حوله قلوب صنهاجة بالعطايا والمنح. أكثر من ذلك، أخذ يعمل في السر والخفاء على استقطاب الزعامات اللمتونية المحيطة بالأمير في الصحرا ءويدعوها إليه، فوصل إليه منهم جماعة كبيرة على قول ابن عذاري. وفي نفس الوقت، كان يوسف ابن تاشفين يداهن الأمير أبا بكر بالهدايا والتحف.(160)

لا ريب أن أمير المرابطين، قد أصبح في وضعية حرجة بالصحراء، فجدالة بارزة أمامه بقوتها وعنادها، وخليفته على المغرب يعمل في السر على انفضاض صنهاجة من حوله، ويجتهد في شراء صمته بالهدايا والتحف. وحتى على فرض انتباه الأمير أبي بكر لحيلة ابن عمه يوسف، وهو شيء لا تستبعده، فهل كان بمقدوره أن يوقف سير الزعامات اللمتونية ـ والمنضوين تحت لوائها ـ نحو مراكش، وهي (المدينة) تدعوهم للحياة الدنيا(161) ؟

تحت ضغط هذه الظروف، اتخذ الأمير أبو بكر قرار العودة إلى المغرب، وهو يضمر عزل ابن عمه يوسف. ومثل هذا القرار، سبق وأن اتخذه شيخه عبد الله بن ياسين ـ في ظروف مغايرة ـ خوفا على حركته من أن تأكلها الصحراء.(162)

160 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 22 ـ 23.

161 ـ نفس المصدر والصفحة. ونسوق العبارة التي جاءت في صيغة تساؤل، ملتمسين دلالتها الإيحائية وشحنتها القرآنية. وبالنسبة لمشكلة تاريخ بناء مدينة مراكش، فقد أصبح شبه مؤكد أن بناءها تم في سنة 463هـ / 1070م. انظر :

Ivan Hrbek et Jean Devisse, Les ALmoravides, Vol.III, ch. 13, p. 379.

162 ـ حين معالجتنا لقضية الغزو المرابطي لمملكة غانة، سنتفهم أكثر موقف عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر كزعيمين للحلف الصنهاجي، المتمثل في عزوفهما عن التوجه إلى بلاد السودان عوض المغرب الأقصى.

وإذن، كيف يمكننا في ظل هذه الظروف التي اكتنفت فترة إقامة الأمير بالصحراء (453 ـ 465هـ)، أن نتصور غزوا مرابطيا لمملكة غانة، أو فتحا لبلاد السودان مقداره مسيرة ثلاثة أشهر كما يزعم صاحب **القرطاس** ومن جاء بعده.[163]

إن العبارة التي ختم بها البكري كلامه عن المرابطين وأحوالهم بالصحراء سنة 460هـ / 1068م : "وأمرهم اليوم منتشر غير ملتئم"[164]، والتي تدعمها وتسايرها أقوال ابن عذاري[165]، تبدو لنا أقرب إلى الواقع التاريخي من تلك العبارات المجانية التي أطلقها ابن أبي زرع في حق المرابطين وأعمال أميرهم أبي بكر إبان إقامته بالصحراء.

هكذا نجد الأمير أبا بكر قد أحس بانفلات الأمر من بين يديه، فاتجه صوب المغرب في محاولة يائسة لإقصاء وتنحية ابن عمه يوسف بن تاشفين، وذلك حوالي سنة 465هـ / 1072م.[166]

على أن أمر المغرب كان قد استوثق لابن عمه، ولم يعد هناك مجال لأن يتخلى له عنه. وكان طبيعيا أن يصعب على يوسف بن تاشفين "مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الاجناد والضخامة". في المقابل، كان الأمير

---

163 ـ ابن أبي زرع، ص 135.

164 ـ البكري، ص 170. وجغرافينا يقصد بقولته تلك، أن أمرهم منتشر على المستوى الديني، وغير ملتئم على المستوى السياسي.

165 ـ البيان المغرب، ج 4، ص 21 ـ 26.

166 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 23. وقد لاحظت عصمت دندش أن زينب زوجة يوسف، التي ساهمت بأفكارها في تنحية الأمير أبي بكر، قد توفيت سنة 464هـ كما يؤكد ابن أبي زرع (ص 135). وعليه، فإن عودة الأمير ينبغي أن تكون قبل السنة التي ذكرها ابن عذاري (465هـ). على أن المصادر، لا تتحدث عن مشاركة شخصية لزينب في لقاء يوسف بأبي بكر العائد من الصحراء ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن صاحب البيان (ج 4، ص 30)، يذكر أن زينب ماتزال بقيد الحياة سنة 469هـ. وبناءا على ما تقدم، لا شيء يدعو للاختلاف مع ابن عذاري إذا أردنا تصديقه. انظر : عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1988. ص 130.

أبو بكر على حد تعبير زينب النفزاوية لا يقاتل على الدنيا، لذلك انسحب مجبرا، وتخلى عن مُلك المغرب ليوسف.[167]

صحيح أن مسألة تنازل الأمير عن ملك المغرب، حكمتها اعتبارات موضوعية، قد تنزع على موقف أبي بكر صبغة انهزامية، غير أن الاعتبارات الذاتية لم تكن غائبة، وكان لها أثر وأي أثر على مستقبل المغرب المرابطي والمسلمين بالأندلس. ذلك أن رهافة حس الأمير وتورعه عن سفك دماء المسلمين، وفر ليوسف الكثير من الوقت ومن الجنود، اللذين كانت معركة الزلاقة سنة 479هـ / 1086م[168] أحوج إليهما من مثل تلك المواقف الظرفية.

بعد إقامة ترتيبات شكلية، تزكي واقع حال الرجلين في كفة ميزان القوة (بيعة يوسف بن تاشفين)، أخذ الأمير أبو بكر يتهيأ للانصراف إلى الصحراء وهو مكسور الجناح من فعل ابن عمه.[169] وكان يوسف بن تاشفين يحس بما يختلج ويعتمل في صدر الرجل، وقد تأثر كثيرا لموقف ابن عمه، فأراد أن يصلح ما أفسدته الأيام بينهما. هكذا، نجده يرسل هدية لأبي بكر، ويكتب إليه رسالة "يعتذر له من ذلك ويحلف أنه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه".[170] وقد حاول يوسف أن يبرهن بهذا السلوك المتواضع، أنه لا يريد من الحكم سوى صلاح أمر المسلمين، أما المُلك، فإن الله يؤتيه من يشاء.

كانت الرسالة بليغة ومؤثرة، وكان أبو بكر بن عمر في مستوى قراءتها وفهم أبعادها، لذلك لم يجد غضاضة في توجيه الشكر ليوسف على هديته

167 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 23.

168 ـ ابن أبي زرع، ص 135 وما تلاها.

169 ـ معلوم أن أبا بكر حينما قرر تنصيب يوسف كخليفة له على المغرب إبان عودته الأولى للصحراء عام 453هـ، واجه بعض الصعوبات من طرف الزعامات اللمتونية التي عارضت القرار، غير أن أبا بكر دافع عن يوسف بقوة إلى أن اقنع الجميع بصواب رأيه. وباستحضار هذا الحدث والدلالة التي تحملها قصة الحلم في القضية، يمكن أن نتبين ونتحسس مدى خيبة أمل وصدمة الأمير في ابن عمه يوسف. انظر : ابن عذاري، ج 4، ص 20.

170 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 26. ويعطينا ابن السماك تفصيلات مدققة عن الهدية. انظر : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. الرباط، 1936.، ص 16 ـ 17.

ـ وذلك أمام وبمحضر الزعامات اللمتونية التي تتبعت كل تفاصيل علاقة الرجلين ـ، فقال عن الهدية وهو يودع المغرب في اتجاه الصحراء : "خير كثير هذا من يوسف".(171)

4 ـ نهاية أبي بكر بن عمر في الصحراء حسب روايتي البيان والقرطاس

إذا صدقنا رواية ابن عذاري، فإن أبا بكر بعد عودته الأخيرة للصحراء في نهاية سنة 465هـ / 1072م، أقام بها ثلاثة أعوام "إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان يحاربهم، حتى قضى الله بوفاته بسهم [مسموم] أصابه كان فيه منيته، وذلك في سنة ثمان وستين وأربعمائة [468هـ]".(172)

ويتفق ابن أبي زرع مع صاحب البيان في كيفية استشهاد الأمير غير أنه يؤجل تاريخ مقتله إلى سنة 480هـ / 1087م، ثم يستدرك على ذلك ويقول : إن الحدث وقع بعد أن استقام لأبي بكر "أمر بلاد الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان".(173)

وإذا حاولنا بما يتوفر لدينا من معلومات رصد واقع الأمير عند عودته لصحرائه، نجد أنفسنا مدفوعين لإقصاء شهادة القرطاس بخصوص فتح الأمير لبلاد السودان. وفي المقابل، تشدنا رواية البيان إليها وتدعونا ببياناتها ـ في دلالتها اللغوية والتاريخية ـ إلى ترجيحها واعتمادها.

ونرى أن الأمير أبا بكر اللمتوني بعد لقائه بيوسف، عاد لصحرائه في وضعية ضعيفة جدا من الناحية العسكرية، مقارنة مع الحالة التي كان عليها أثناء

171 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 26.

172 ـ ابن عذاري، ج 4، ص 26. وكما لاحظنا سابقا فتارشتا هو الآخر قضى ثلاث سنوات في الجهاد. انظر ما قلناه عن قيام الحلف الصنهاجي الثالث وولادة الحركة المرابطية. ص 38 ـ 39 وخاصة هامش رقم 87 و88.

173 ـ ابن أبي زرع، ص 135 ـ 136. ونرى أن لا سبيل لتفضيل رواية على أخرى بخصوص سنة مقتل الأمير. وما يذهب إليه بعض الباحثين من أن استمرار ضرب السكة في المغرب المرابطي باسم أبي بكر بعد سنة 469هـ، يمكن اعتماده كحجة ترجح رواية القرطاس، قول مردود بالنسبة للعارفين بتاريخ المسكوكات بالمغرب الوسيط.

محاولته استرجاع ملك المغرب. وبعبارة أوضح، فقد تخلى عنه الكثير من رجاله، حيث فضلوا البقاء في مغرب يوسف، وبذلك التحق الأمير بالصحراء في قلة من أصحابه.

ولعبارة ابن عذراي صياغة تذهب بنا في هذا الاتجاه، حيث يقول : "ثم انصرف [الأمير أبو بكر] بهديته بعدما أعطى منها بعض إخوانه وخاصته".[174] والعبارة تؤدي عدة معان، من بينها أن أولئك الإخوة والخاصة، والمقصود بهم الزعامات اللمتونية، لم يرافقوا الأمير أبا بكر بن عمر إلى الصحراء.[175]

فما الذي أغواهم حتى تخلوا عن أميرهم؟

بناءً على روايتي ابن عذاري وابن أبي زرع، نعلم أن يوسف والأمير أبا بكر، كان كل منهما يعرف مسبقا ما كان يضمره الواحد للآخر، وذلك قبل سنة على الأقل من لقائهما في موضع فحص البرنس الواقع بين أغمات ومراكش.[176] ويضيف ابن عذاري، أنه بمجرد وصول الأمير من الصحراء - بهدف تنحية يوسف عن الملك - ونزوله بجيشه في مضارب خارج أغمات : "تسابق أكثر أصحابه إلى مراكش برسم رؤيتها ورؤية بنائها والسلام على أميرها يوسف [...]، فاجتمع إليه من القادمين عليه خلق كثير، فوصلهم على قدر منازلهم ومراتبهم وأمر لهم بالكسي الفاخرة والخيول العتيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة".[177]

ويتأتى لنا من هذه المعطيات، أن يوسف بن تاشفين كان يتّبع سياسة استقطاب حول شخصه بين الزعامات اللمتونية ورعاياها في الصحراء ؛ وكان يعمل على استمالتهم إليه على حساب الأمير، وذلك بإحسانه وإنعامه على من والاه. وهذا ما يشير إليه ابن عذاري عند تفسيره لسبب ذلك التسابق نحو

174 - البيان المغرب، ج 4، ص 26.
175 - ابن السماك، الحلل الموشية، ص 17.
176 - البيان المغرب، ص 4، ص 24. روض القرطاس، ص 135. العبر، المجلد 6، ص 377.
177 - البيان المغرب، ص 4، ص 24.

مراكش، حيث قال : "وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه [يقصد يوسف] وجميل كرامته وجزيل إحسانه وإنعامه على إخوانه وقرابته [اللمتونيين]".[178]

ويبدو واضحا أن يوسف قد نجح في سياسته هاته، وبالتالي فإن تمكنه من مُلْك المغرب، لا يعود فحسب إلى قوة جيشه أمام الأمير إبان لقائهما بفحص البرنس، وإنما يعود كذلك إلى عمله على انفضاض رجال وخاصة الأمير من حوله، وجلبهم واستمالتهم إليه بإحسانه وإنعامه.[179]

والحالة هذه، فإننا لا نستبعد أن يكون يوسف ـ بعد حسم مسألة المُلْك لصالحه ـ قد حاول إقناع الأمير أبي بكر بضرورة التخلي عن عدد هام من رجاله، حتى يستعملهم يوسف في تمهيد وفتح المغرب. ومحاولة يوسف لإقناع ابن عمه ببغيته، ليست في الواقع سوى مبادرة شكلية أو لِنَقُل، إنها لياقة أدبية تجاه الأمير، لاغير. ذلك أن واقع الحال هو أن يوسف يغري رجال وأصحاب أبي بكر بالأموال والحياة الدنيا، وهؤلاء يتسابقون إليها، ولا يريدون العودة إلى صحرائهم وشظف العيش بها.

في إطار هذا السياق، لم يكن بإمكان الأمير سوى الرد بالإيجاب على طلب يوسف. وحتى في حالة ما إذا رفض، فإن رجاله وأصحابه لن يوافقوه الرأي، وفضلا عن ذلك، فإنه لن يتوصل بالهدية، وربما يقع له ما لا تحمد عقباه.[180] ثم لماذا يرفض الأمير أبو بكر طلبا رخيصا مثل هذا، عُرض عليه بأسلوب مؤدب، وهو الذي تنازل عن مُلْك المغرب لمجرد أن يوسف ـ حسب بعض المصادر ـ، قد طلبه منه بأسلوب مؤدب!؟

هكذا، سيعود الأمير أبو بكر إلى صحرائه رفقة قلة من أصحابه المؤمنين بقضيته، وسيعوضهم يوسف عما فقدوه من رجال بالمال. وهذا المال، سيوظفه

---

178 ـ نفس المصدر والصفحة.

179 ـ نفس المصدر، ج 4، ص 24 ـ 25.

180 ـ هذا ما تلمح إليه رواية ابن خلدون : "[...] ففطن لذلك الأمير أبو بكر وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر ورجع إلى أرضه". العبر، المجلد 6، ص 377.

العائدون إلى الصحراء، في غزو قلوب السودان ببناء المساجد وترسيخ كلمة الاسلام، وليس في غزو عسكري لبلاد السودان ومناجم ذهبها كما أوهمنا ابن أبي زرع.

فالقوة العسكرية التي عادوا بها إلى الصحراء عام 465هـ / 1072م، لن تمكنهم حتى من ردّ هجومات جدالة إن هي عادت لنعرتها، فبالأحرى غزو مملكة غانة والاستيلاء على بلاد السودان مسافة تسعين يوما.

إن التجربة التي مر بها الأمير أبو بكر بن عمر سواء في علاقته مع جدالة أو مع ابن عمه يوسف بن تاشفين، ستعمق إيمانه بضرورة التخلي عن السياسة، التي لم تجلب له سوى المتاعب والفشل. لقد كان الرجل برهافة حسه، وروحه المتصوفة، يريد أن يوظف السياسة في ترسيخ كلمة الاسلام وصلاح أمر المسلمين، لكن السياسة لا دين ولا أخلاق لها.

وفي خضم هذه التطورات، عاد الأمير إلى الصحراء وبلاد السودان مصمما العزم على تنفيذ مشروعه، لكن ليس كزعيم سياسي له دولة وجيش، وإنما كإمام له مساجد وطلبة. لقد فهم واستوعب أبو بكر بعد كل هذه التجارب، الحكمة الكامنة وراء رغبة شيخه عبد الله بن ياسين في الذهاب إلى بلاد السودان لتعميق معرفة السودانيين بالاسلام، وذلك حينما ثارت عليه جدالة في بداية أمره وعزلته[181]، ونفس التجربة تتكرر الآن معه.

فالسياسة وإقامة الدولة كانت تشد الزعامات الصنهاجية إلى الشمال : المغرب الأقصى، وحينما تقتصر رئاستهم على الجانب الديني (كفقهاء وأئمة أو كمسلمين عاديين) يجدون أنفسهم مندفعين نحو الجنوب : بلاد السودان.[182]

---

181 ـ راجع صفحات 49 ـ 51.

182 ـ تجدر الإشارة إلى أن عبد الله بن ياسين عندما استرجع زعامته للحلف الصنهاجي، عدل عن رأيه ولم يتوجه إلى بلاد السودان، وإنما صعد لمواجهة برغواطة. كما أن سلوك جدالة يدعم هذا الطرح، حيث نجدها تصعد إلى الشمال نحو جبل لمتونة لتلحق بأهله هزيمة نكراء سنة 448هـ، لكنها في المقابل لا تحارب السودان في الجنوب.

وليس من قبيل الصدفة - إذن -، أن يترك الأمير أبو بكر الجيوش المرابطية في المغرب ليوسف صاحب الزلاقة، ويأخذ معه عند عودته الثانية والأخيرة للصحراء، الفقيه الأصولي أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي.[183] وتأخذ المسألة دلالة عميقة حينما نلاحظ أن يوسف بن تاشفين يخلف الأمير في الشمال كملك على المغرب المرابطي، في حين يخلفه في الجنوب على الحدود الصنهاجية المصاقبة لبلاد السودان، فقيه أصولي، وليس زعيما للحلف الصنهاجي.

باستشهاد الأمير أبي بكر[184]، انطفأت شعلة المرابطين كحركة سياسية بالصحراء، وكانت على هذا المستوى، قد انتهت منذ صعود الأمير لاسترجاع مُلك المغرب من يوسف عام 465هـ / 1072. ولكن على المستوى الديني، فقد ظلت شعلة المرابطين متوقدة من خلال طلبة وتلامذة الإمام عبد الله بن ياسين والفقيه الحضرمي، وغيرهما من الفقهاء الذين أكلت أسماءهم رمال الصحراء.[185]

ولأن الإمام عبد الله بن ياسين تلميذ واجاج بن زلو، كان سببا في قيام دولة المرابطين، فقد تهافت أصحاب مصادرنا على تدوين وتسجيل إسمه

---

183 - توفي الحضرمي بمدينة أزكي من صحراء صنهاجة عام 489هـ. انظر : ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 106 وهامش رقم 71. والحضرمي هو صاحب مؤلف : "كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة". الدار البيضاء - المغرب، دار الثقافة، 1981. [تحقيق : سامي النجار].

184 - يقول الشنقيطي : "البيبه «بلام مفخمة» هي جبل أزرق وبها قبر أبو بكر بن عامر أحد سلاطين مراكش، وهو عم يوسف بن تاشفين، وكان ثار عليه في مدة غيبته فتركه وذهب إلى الصحراء فمات بها وبينها (البيبه) وبين تيججكة يوم ونصف". انظر : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط. القاهرة : مطبعة السنة المحمدية، 1958. ص 447.

185 - بالنسبة للجانب الاقتصادي، فقد أصبح المغرب الأقصى والأندلس والصحراء ينعمون بوحدة اقتصادية قوية خلال القرن 5هـ / 11م. انظر :

Ivan Hrbek et Jean Devisse, Les Almoravides, in Histoire Général de l'Afrique, UNESCO / NEA-1990, Vol. III, ch. 13. pp. 390-391.

وأعماله، بينما ظلت أعمال تلامذة الإمام - وغيرهم من الفقهاء الذين انتشروا في الصحراء وبلاد السودان لخدمة الاسلام - مهملة ولم يسجل منها شيء.(186)

على أن انقلاب الوضعية الدينية لمملكة غانة وتحول جل أهلها - حكاما ورعية - إلى الاسلام فيما بين منتصف القرن الخامس (البكري) ومنتصف السادس للهجرة (الإدريسي)، وتطور الاسلام بسلطنة التكرور في نفس الفترة، يدلنا على مجهودات أولئك الطلبة، ويُحيلنا على نتائج أعمالهم.

وعندما يريد ملك غانة في عهد الإدريسي أن ينتسب لآل البيت، فليس لأن المرابطين قد غزوا مملكته، وهدّموا عاصمته وأرغموه على الاسلام، بل لأن عليا بن أبي طالب هو ابن عم وصهر رسول الاسلام. وإحراز شرف الانتماء لآل البيت يعني بالنسبة لملك غانة وقتئذ، الحصول على شرف متميز يؤكد من خلاله على مدى انتمائه العميق للاسلام ولدار الاسلام. وبالتالي، يحقق تميزاً بالنسبة لسلطنة التكرور المسلمة، المجاورة له من جهة الغرب.(187)

---

186 - ومنهم الفقيه الجوهر بن سكم الذي أشار إليه البكري (ص. 165). كما أننا لا نعرف شيئا عن الدور الديني للفقيه الحضرمي سواء بالصحراء أو ببلاد السودان.

187 - يعتقد عدد من الإفريقانيين، أن استعمال عبد الله بن ياسين للضرب في تربيته الاسلامية لصنهاجة، يعني أن صنهاجة أسلموا تحت ضغط السياط. ولأن مثل هؤلاء الباحثين يجهلون المعنى التاريخي لمسألة ضرب الأستاذ لتلامذته في المجتمع الاسلامي الوسيط، كان عليهم أن ينتبهوا على الأقل إلى ما جاء في نفس الصفحة التي اعتمدوها في استنتاجهم ذاك، حيث يقول البكري : "وهم الآن [يقصد المرابطين بعد وفاة ابن ياسين] لا تقدم طايفة منهم أحدا للصلاة إلا من صلى وراء عبد الله وإن كان في تلك الطائفة أقرأ منه وأورع ممن لم يصل وراءه". البكري، ص 169. وفضلا عما تقدم، فإن الاسلام انتشر في صحراء صنهاجة منذ القرن 3 هـ / 9م. انظر :

Triaud J. L., Islam et Sociétés Soudanaises au Moyen-âge. Etude historique, Paris, Ouagadougou, Recherches Voltaiques, N°16, 1973, pp. 51 - 52.

الخلاصة

كحركة دينية، انتشر أمر المرابطين بالصحراء وترك صدى عميقا لدى القبائل الصنهاجية، الشيء الذي يعكس رغبة صنهاجة اللثام في تعميق معرفتها بالتعاليم الاسلامية، ليس من موقع الجهل التام كما حاولت أن تقنعنا به بعض الشهادات المصدرية، وإنما من موقع العارف الواعي بثغرات معرفته والمتطلع لتجاوز قصوره.

وهذه الرغبة القوية في التعلق بالديانة الاسلامية، هي التي حفزت رجال وأبناء الحركة المرابطية ـ كأفراد ـ على إخصاب تجربة الاسلام في أعماق بلاد السودان، إلى درجة أحب معها أحد أمراء مالي رفع نسبه إلى الأمير أبي بكر ابن عمر اللمتوني.(188)

على هذا الأساس، فإن رمال الصحراء بذاكرتها الضعيفة إزاء الزمن (التاريخ)، حينما قررت الاحتفاظ باسم عبد الله بن ياسين وأعمال تلامذته ببلاد السودان، كانت تعي أن الأمر يتجاوز قوة لهيب حرارتها، التي تذوب جميع الأعمال وتحيلها للعواصف ترميها في زاوية النسيان.

لكن على المستوى السياسي، ظلت الحركة المرابطية بالصحراء عاجزة ـ مثل سابقاتها من التجارب السياسية لصنهاجة ـ عن تحقيق وحدة القبائل الصنهاجية، ولم يكن بمقدورها غزو مملكة غانة. وعوض أن يعمل ابن ياسين ـ الذي سلمته القبائل مقاليد أمرها ـ على إطفاء نار الصراعات القبلية حول زعامة الحلف، انغمس في اللعبة السياسية، وأخذ يبعد ويقرب من يشاء. الشيء الذي عمق المشكل، ولم تنفع معه ليونة ورهافة حس الأمير أبي بكر بن عمر.

188 ـ تذكر الرواية الشفوية السودانية أن أبا بكر بن عمر قد زوج إحدى بناته لعاهل مالي. ويظهر أنها رواية موضوعة، مثلها مثل الرواية التي تدعي انتساب ملك غانة لعلي بن أبي طالب. ويغلب على الظن أن القصد من مثل هذه الروايات هو التأكيد على رسوخ قدم الاسلام لدى السودانيين ليس إلا. انظر : ليون الافريقي، وصف إفريقيا. بيروت : دار الغرب الاسلامي، ط 2، 1983. [ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر]. ج 2، ص165، هامش رقم 13.

والواقع، فقد كان الموقف محتاجا لتلك السلطة الروحية لعبد الله بن ياسين، وهذا ما يفسر تعلق صنهاجة بزعيمهم وإمامهم بعد وفاته، بيد أن الموقف كان محتاجا كذلك إلى تجربة ودهاء سياسي، عارف بوسائل تقعيد أمور الدولة. وهذا الجانب الأخير، افتقدناه في شخصيتي ابن ياسين وخلفه أبي بكر بن عمر كزعيمين للحلف الصنهاجي الثالث بالصحراء.

وإذا كان التاريخ لا يكرر نفسه على اعتبار أن شخوص المسرحية الثانية ينتبهون إلى أخطاء المسرحية الأولى، فإن يوسف بن تاشفين بإيمانه ودهائه السياسي، استطاع أن يقدم لنا صورة معبرة على مدى استفادته من الدرس.

لكن هل كان بإمكانه أن يفعل نفس الشيء بالصحراء؟

الفصل الثالث

III مملكة غانة والانهيار المزعوم على يد المرابطين

لقد تظافرت عدة اعتبارات لتجعل من أطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة حوالي عام 469هـ / 1076م، إحدى المسلمات البديهية، التي ما تزال تلاقي رواجا كبيرا بين أوساط المختصين الإفريقانيين والمهتمين بتاريخ العلاقات المغربية السودانية.

ومع تراكم الأبحاث والدراسات، ازداد الاعتقاد في الأطروحة رسوخا وتمكنا من النفوس، وأصبح تداولها لا يثير أدنى قلق أو انزعاج لدى الغالبية العظمى من الدارسين.[189]

على أن هذا التوجه الجارف، لم يمنع جان لوي تريبو (J. L. Triaud) في بداية عشرة السبعين من قرننا هذا من إبداء بعض التحفظات الخجولة إزاء الرأي السائد، كما أنه لم يخذل شجاعة جان دوفيس (J. Devisse)، حينما دعا إلى ضرورة إعادة النظر في القضية قبل المجازفة بتبني أي موقف كان من الأطروحة الشائعة.[190]

فكيف - إذن - تمّ الاعتقاد أو التصديق على واقعة الغزو المرابطي التي أدت حسب الكثير من الباحثين إلى انهيار مملكة غانة؟ وهل تسعفنا المادة المصدرية في تزكية هذا الطرح؟

1 - مراحل تشكل الرأي المعتقد في صحة الواقعة.

لقد تأكد لنا فيما سبق، أن مؤلف أبي عبيد البكري يعد من أهم مصادرنا عن مملكة غانة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري (11م). وإذا

189 - نظرا لكثرة الدراسات التي قالت أو اعتقدت في غزو المرابطين لمملكة غانة، نكتفي هنا بإحالة القارئ على بعض الدراسات المتميزة، وهي من بين آخر ما صدر حول الموضوع. أنظر. عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا. بيروت، 1988. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993. و : Cuoq J., Histoire de l'Islamisation.., 1984.

190 - انظر : - Devisse, J. et Denis, R. Robert, S., Tegdaoust I, Recherches sur Aoudagoust, Paris 1970.

- Triaud J. L., Islam et Sociétés Soudanaises au Moyen-Age, Paris, 1973.

جاز لنا أن نختزل وصفه لأحوال المملكة، فيمكننا أن نتوقف عند نقطتين أساسيتين :

أولهما، أن مملكة غانة خلال الفترة المعنية، كانت مُهابة الجانب بفعل قوتها العسكرية، التي بلغ قوامها مائتي ألف رجل.[191] ثانيهما، أن المملكة كانت متخلفة حضريا وحضاريا، وأن جل أهل غانة مايزالون وثنيين يعبدون الأصنام. غير أن البكري وهو يحيلنا على هذه الوضعية العامة، لم يفته تسجيل ذلك الحضور الجنيني للاسلام، خاصة في غانة العاصمة. وجل المعطيات التي طرحها بهذا الصدد، تدفعنا دفعا للاقتناع بأن البلاد ـ وقتئذ ـ كانت تتهيأ لتحقيق طفرة حقيقية فيما يخص ترسيخ الدعوة الاسلامية بين أهل غانة.

بعد حوالي قرن من الزمان من وصف البكري، جاءت شهادات الشريف الإدريسي لتطلعنا على ما استجد في أحوال المملكة. وأهم ما شدنا ـ كما رأينا ـ في أقوال صاحب النزهة، هو تأكيده الصريح على استقلالية مملكة غانة كوحدة سياسية، وتوسع حدودها الشرقية على حساب حدودها الغربية، وإلماعه إلى احتفاظ غانة بنفس القوة العسكرية التي كانت لها أيام البكري.

وفيما يخص الجانب الديني، جاءت أقوال الادريسي لتثمن ما خمناه سابقا مع البكري، حيث أصبح جل الأهالي ـ حكاما ورعية ـ يعتنقون الاسلام. وقد وجد هذا التحول ترجمته العميقة، في رغبة ملك غانة في الانتماء لآل البيت وإعلانه عن تبعيته للخلافة العباسية.[192]

وباستقراء روايات جغرافيينا عن غانة، نلاحظ أنها لاتشير بتاتا إلى واقعة الغزو المرابطي. ومما لاشك فيه أن تجاهل الادريسي لهذا الأمر، جعل المعتقدين في صحة الرأي الشائع في وضع لا يحسدون عليه ؛ لذلك وجدوا أنفسهم مدفوعين لاتخاذ موقف صارم من رواياته!

---

191 ـ البكري، ص 177.

192 ـ الإدريسي، ص 6. وقد انتقد ابن خلدون رواية الإدريسي المتعلقة بانتماء ملك غانة لعلي ابن أبي طالب. انظر : العبر، المجلد 5، ص 931.

ولتجاوز وحل هذه المعضلة، لم يكن بد ـ والحالة هذه ـ من الاستهانة بشهادات الادريسي عن غانة والشك فيها ؛ وبذلك تمّ تمهيد أولى الصعوبات التي واجهتهم![193]

وبموازاة مع ضرب مصداقية روايات الإدريسي، أخذوا يتهافتون على شهادة الزهري ويتعلقون بها، لأنها تفي بالغرض المطلوب وتستجيب لرغباتهم. وتبعا لذلك، أصبحت رواية الجغرافي الزهري ـ وهو معاصر للادريسي ـ، تشكل منطلقا هاما لتحليلاتهم، وأول شهادة مصدرية، تدعم موقع المعتقدين في أطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة.[194]

والواقع أن الدارسين، لم يكن لهم أن يأخذوا كلام الزهري على محمل الجدّ لولا رواية ابن أبي زرع، التي على الرغم من غموض تعابيرها، رسخت الأطروحة وألبستها نوعا من المصداقية التاريخية.[195]

إلى هذا الحد، كان بإمكان المؤرخين والباحثين الإفريقانيين أن يترددوا قليلا أو كثيرا قبل المغامرة بتبني أي موقف كان، غير أن رواية ابن خلدون جاءت ـ بثقل شخصية صاحبها ـ لتمتص ما تبقى من ترددهم ولتقوي اعتقادهم في الواقعة.[196]

---

193 ـ منذ أن نبّه موريس دولافوس (الأب الروحي للإفريقانيين الفرنسيين والمتفرنسين) إلى ضرورة الشك في روايات الإدريسي عن بلاد السودان، والباحثون يجهدون أنفسهم لترسيخ هذه الفكرة. الشيء الذي أدى إلى اغتيال تاريخ عدد من الإمارات السودانية ومنها تاريخ غانة وتكرور كما حققناه مع الإدريسي. والتساؤل المطروح هنا، لماذا يتم تبجيل روايات البكري عن السودان مقابل الارتياب من شهادات الادريسي؟ هل هناك شك في الكفاءة الجغرافية لصاحب النزهة، أم أن ذلك راجع ـ ببساطة ـ إلى كون البكري يحدثنا عن أهل غانة وهم مغرقون في وثنيتهم، في حين يقدمهم لنا الإدريسي ـ بعد حوالي مائة سنة من ذلك ـ وقد أصبحوا مسلمين. انظر : Delafosse M., Haut-Sénégal-Niger, T.II, pp. 14-15 et 18.

194 ـ الزهري، كتاب الجعرافية، ص 125.

195 ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 134 ـ 136.

196 ـ العبر، المجلد 6، ص 413.

بعد توثيق الخبر والتأكيد على وقوعه، أخذ البعض يجهد نفسه في البحث عن الإطار النظري، الذي يمكن أن يرصّع موقفه، ولم يكن من الصعب والحالة هذه، استحضار نظرية العداء التاريخي بين الرحل (صنهاجة الصحراء) والمستقرين (أهل غانة)، واستغلالها في إحكام البناء التاريخي والنظري للأطروحة.[197]

وحينما اكتملت معالم القضية بالشكل الذي رأيناه، وحان وقت الحصاد واستخلاص النتائج، انتهى الكثير منهم إلى القول : إن مملكة غانة السودانية الوثنية، ذهبت ضحية همجية المرابطين، أولئك البربر المسلمين المتعصبين.

هذه إذن، هي اللوحة التي تصادفها في جل الدراسات التاريخية الأعجمية التي تناولت قضيتنا.[198] ومع أن بعض الأبحاث المتأخرة اجتهدت في الابتعاد عن الصورة التي رسمناها، فإنها ظلت في العمق حبيسة أبعادها، الشيء الذي خلق لديها نوعا من الاضطراب أثناء تناولها للواقعة.[199]

2 ـ مقاربة جديدة في تحليل ومعالجة قضية الغزو المرابطي

إن هدفنا هنا، يروم التحقق من مدى مصداقية الرأي السائد حول قضيتنا. ولبلوغ المرمى المقصود ليس أمامنا سوى الاحتكام إلى المادة المصدرية، التي اعتمدت في صناعة الحدث.

بدءا، نبادر إلى القول بأننا لم نعثر على وثائق مصدرية جديدة تهم موضوعنا، لذا ستقتصر محاولتنا على تقديم قراءة جديدة لنفس المادة المصدرية المتوفرة. وقبل ذلك سنعمل على طرح بعض الاعتراضات الشكلية والمنهجية.

---

197 ـ انظر : Mauny. R., - Tableau Géographique de l'Ouest Africain , pp. 218-222 et 505.
- Les Siècles Obscurs.., p. 15 et 142.

198 ـ نلفت الانتباه إلى أن الدراسات العربية ـ إلى وقتنا الراهن ـ وإن دافعت عن الدور الديني للحركة المرابطية، فإنها لم تشك لحظة واحدة في غزو المرابطين لمملكة غانة.

199 ـ ما من شك أن دراسة جان لوي تريبو (J. L. Triaud)، تعطينا أحسن نموذج عن هذا الاضطراب، حيث نجده تارة يشكك في واقعة الغزو المرابطي لغانة، وتارة أخرى يعود لاستهلاك الرأي السائد. وقد برز حاليا اتجاه جديد يتزعمه جان دوفيس (J. Devisse)، يتجنب الكلام عن الواقعة حين معالجة مسألة علاقة المرابطين بالسودان. انظر :
- Triaud J. L., Islam et Sociétés Soudanaises..., p. 40 et 78.
- Ivan Hrbet et Jean Devisse, Les Almoravides, VOL. III, Ch 13. p. 389.

أ ـ الاعتراضات الشكلية والمنهجية

ـ قد يبدو الأمر مثار دهشة كبيرة حينما يطلع الباحث على المصادر المعنية، ويكتشف أن أيّا من أصحاب مصادرنا لم يقل لنا بصريح العبارة "إن المرابطين قد غزوا أو فتحوا مملكة غانة في تاريخ كذا أو كذا".[200] على هذا الأساس، فإن المعتقدين في صحة الغزو المرابطي، لا يوثقون خبرا وإنما يقدمون استنتاجا لا غير. وهو استنتاج انتهى إليه موريس دولافوس (M. Delafosse)، وأخذه عنه من جاء بعده.

ـ بما أننا أمام استنتاج يحتمل الشك المستفز لذهن الباحث، فإن المتتبع للدراسات التي تناولت قضيتنا، يستغرب حالة الانشداد والاعتماد على أقوال الرُّواد من المختصين الإفريقانيين دون تمحيص، وبالتالي استهلاك الرأي السائد باطمئنان دافئ. والحالة هذه، ولتجنب أي انزلاق مجاني، فقد كان بإمكان هؤلاء الباحثين طرح العديد من التساؤلات المنهجية والموضوعية التي تفرضها طبيعة الموضوع. ولعل أهم سؤال مغيب في تلك الدراسات هو : هل كان بمقدور عبد الله ابن ياسين أو خلفه أبي بكر بن عمر غزو أو فتح بلاد السودان مسيرة تسعين يوما، وبالتالي السيطرة على مملكة غانة؟

ـ كما سجّلنا، فقد انتهى غير واحد من الباحثين الإفريقانيين إلى ضرورة الشك في مرويات الادريسي عن غانة، لأنها لا تشير إلى الغزو المرابطي. لكن هل هذا الاعتبار كاف لكي يجعلنا نرتاب من أقوال صاحب النزهة، ونقلل من قيمة كفاءته الجغرافية؟ ثم لماذا نطلب من الإدريسي وحده أن يحدثنا عن الواقعة وتفاصيلها، ولا نطلب ذلك من غيره!؟

الواقع، أن المتمرس بالمصادر العربية المتعلقة بتاريخ بلاد السودان خلال العصر الوسيط، حينما يُدفع لاعتماد نفس المقاييس التي أدت إلى اتهام

---

200 ـ من الأمور اللافتة للانتباه لدى الكثير من الباحثين، أنهم حينما يتكلمون عن الغزو المرابطي لمملكة غانة كحقيقة تاريخية، فإنهم لا يحيلوننا على مصادر معلوماتهم!

الإدريسي، فلابد وأن ينتهي به المطاف إلى نسف مصداقية جل المصادر المعنية ؛ وفي أحسن الأحوال فإن الأمر لن يقتصر على الإدريسي وحده، وإنما سيشمل عددا لا يستهان به من الأسماء المصدرية المعتبرة لدينا مثل ابن عذاري وابن سعيد المغربي وغيرهما.(201)

وفضلا عما تقدم، ينبغي ألا يغرب عن البال أن كتاب **النزهة**، يُعدُّ من ضمن المصنفات الجغرافية وليس التاريخية، لذلك فإنه حتى ولو كان الفتح المرابطي لمملكة غانة أمرا حقيقيا، فإن الادريسي لم يعاصره، وبالتالي فهو - كجغرافي - غير مطالب بأن يخبرنا بما تقدم من أخبار وأحوال هذه المملكة السودانية. ولهذا السبب، لم يعمل على استحضار ما قيل عن غانة أيام البكري. وحري بنا في مثل هذا الوضع، أن نشكك في الكتابات والمصنفات ذات الصيغة التاريخية، التي تجاهلت قضية الغزو المرابطي أو لم تطلعنا على تفاصيلها.(202)

ويتأدى لنا من هذه المعطيات، أن مآخذ الباحثين على أقوال الإدريسي، لا تعود بالأساس إلى اعتبارات موضوعية (عدم إشارته للغزو المرابطي)، وإنما تعود إلى أسباب ذاتية، تخجل مكانتهم العلمية من الإفصاح عنها صراحة.(203)

ب - الدراسة النقدية للشهادات المصدرية المعتمدة في تزكية الرأي السائد.

- روايات الجغرافيين(204) : البكري، الإدريسي، الزهري.

كما رأينا سابقا، فقد تَركَنَا البكري في مملكة مستقلة وثنية مع حضور جنيني للاسلام. ثم جاء الادريسي، فأكد لنا استقلالية المملكة وتوسع حدودها

201 - ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970. [حققه إسماعيل العربي]. وكان خوان ڤرنيط خنيس قد نشره تحت عنوان : كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تطوان : معهد مولاي الحسن، 1958.

202 - مثل ابن عذاري، وابن خلدون، وعبد الواحد المراكشي صاحب : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الدار البيضاء : دار الكتاب، طبعة 7، 1978. وهذا الأخير لم ينبس بأية كلمة في حق السودان وبلاد السودان، سوى ما ذكره عن ذهب الأندلس، حيث قال : "فأما الذهب فمسوق إليها من بلاد السودان". ص 511.

203 - نستحضر هنا التعقيب الذي أثبتناه في هامش رقم 193.

204 - على الرغم من تنوع المادة المصدرية المتعلقة ببلاد السودان خلال العصر الوسيط، فإن المعلومات التي تمدنا بها المصنفات الجغرافية ثم التاريخية، تتمتع بقيمة متميزة ومكانة رفيعة لدى المختصين.

الشرقية، وفي نفس الوقت أطلعنا على ما لحق تجربة الاسلام من تطور لدى أهل غانة. وكما سجلنا قبل قليل، فإن صاحب **النزهة** كجغرافي، غير مطالب بأن يخبرنا بما تقدم من تاريخ مملكة غانة، لذلك علينا ألا نستغرب انشداده إلى بلاد السودان كمعطى جغرافي (المكان) وليس تاريخي (الزمن).

بيد أن الجغرافي الزهري أبدى اهتماما بالجانب التاريخي، فقال : "وأهل هذه البلاد [يقصد أهل جناوة] كانوا يتمسكون فيما سلف بالكفر إلى تسع وستين وأربعمائة [469هـ]، وذلك عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير مسوفة وأسلموا في مدة لمتونة وحسن إسلامهم وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء".[205]

والزهري معاصر للادريسي[206]، لكنه لا يتمتع مثله بالكفاءة الجغرافية، ولا بالدقة في ضبط الأحداث أو تحقيق أسماء الأشخاص والأماكن، على الأقل بالنسبة لكلامه عن بلاد السودان.[207]

فالتكرور حسب الزهري اعتنقت الاسلام بعد غانة، في حين أن العكس هو الصحيح، ثم إنه يربط ما بين الفتح المرابطي واعتناق أهل غانة للاسلام، بينما الواقع غير ذلك كما رأينا. وبموازاة مع ذلك، نجده يتحدث عن مدينة كوكو[208]،

205 ـ الزهري، كتاب الجعرافية، ص 125.

206 ـ حسب محقق مؤلف الزهري محمد صادق، فإن جغرافينا توفي فيما بين سنتي 541 و556هـ / 1154ـ1161م. وإنه خلال هذه الفترة ألف تصنيفه الجغرافي : كتاب الجعرافية : بور سعيد ـ مصر : مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ النشر، ص : و، ز. ومعلوم أن الإدريسي انتهى من تأليف نزهة المشتاق، حوالي عام 541هـ / 1154م.

207 ـ انظر ملاحظات يوسف كيوك، بهذا الخصوص :

Cuoq J., Recueil des Sources Arabes Concernant l'Afrique Occidentale du VIIIe au XVIe siècle : Bilad AL-Sudan, Paris, CNRS, 1985, p. 3, 16 et 120 note 3.

208 ـ تقع مدينة كوكو عند بداية الثنية الثانية لنهر النيجر، وهي لا تبعد عنه سوى ب 6 كلم. ونظرا لموقعها المتميز، فقد اتخذها السنغيون عاصمة لإمارتهم منذ القرن 4هـ / 10م على الأقل، وفي نفس الفترة تقريبا انتشر الاسلام بين أكثر أهل كوكو، وأصبح ملك البلاد يظاهر به رعيته. انظر : محمودكعت، تاريخ الفتاش، ص 45. ياقوت الحموي : معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977، ج 4، مادة كوكو، ص 495. المالكي، كتاب رياض النفوس، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط 2، 1988، ج 1، ص 182، 186، 286، 449، ج 2، ص 102، 284. البكري، ص 183.

ويعتبرها عاصمة بلاد الحبشة، بينما هي عاصمة السنغيين. والأمثلة على ضعف رواية الزهري سواء على المستوى الجغرافي أو التاريخي كثيرة، كما أن معلوماته عن بلاد السودان وأهلها، حبلى بالتناقضات الصارخة والغموض الكثيف.

وفي النص الذي أثبتناه، نلاحظ أن الأمر قد اختلط على الزهري عند كلامه عن غانة العاصمة وغانة المملكة، حيث تمكن من التعرف على الأولى، إلا أنه أخطأ الثانية وأعطاها اسما آخر وهو جناوة[209]، عوضا عن اسمها الحقيقي. وجناوة اصطلاح عامي أكثر منه جغرافي، الشيء الذي يحملنا على الاعتقاد في أن الزهري حين كلامه عن بلاد السودان، كان يعتمد على ما يشاع بين العامة دون أي تدقيق في ما يدونه.[210]

وعلى المستوى اللغوي، نجده يوظف كلمة أو مصطلح خروج[211]، ولو أراد أن يحدثنا عن استيلاء المرابطين على مملكة غانة أو بلاد جناوة كما يسميها، لأفصح في الكلام واستعمل كلمات أكثر تعبيرا في مثل حالتنا، أقربها إلينا : فتح، غزو، استيلاء.

فهل كان الزهري لا يعرف هذه المصطلحات أو الكلمات!؟

إن اضطراب معاني ولغة الزهري لا يعكس فحسب غموض معارفه الجغرافية والتاريخية حول بلاد السودان، وإنما ينم كذلك عن ضعف إلمامه بتاريخ صحراء المرابطين ؛ وهذا ما يفسر عجزه عن تحقيق أسماء بعض زعماء الحركة المرابطية وانتمائها القبلي. ففي محاولة منه لتحديد سنة تحول أهل جناوة إلى الاسلام، يقول إن ذلك الحدث وقع سنة 469هـ "عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير مسوفة". لكن إذا كان المقصود به أمير المرابطين سنة 469هـ / 1076م، فلن يكون

209 ـ عن تاريخ مصطلح "جناوة" انظر :
Cuoq J., Recueil des Sources Arabes..., p. 119 note 1.

210 ـ ابن السماك استهلك حرفيا رواية الزهري التي سجلناها، غير أنه تجنب استعمال كلمة جناوة، وفضل استعمال الاصطلاح الجغرافي المشهور : بلاد السودان. انظر : الحلل الموشية، ص 7.

211 ـ لاشك أن الزهري يقصد المعنى الأصلي للكلمة، أي الخروج إلى ساحة القتال للجهاد في سبيل الله.

يحيى ذاك، وإنما أبو بكر بن عمر اللمتوني كما مر علينا ؛ وفضلا عن ذلك، فإن المصادر لا تشير إلى أي زعيم مسوفي للحلف الصنهاجي الثالث الذي تولدت عنه الحركة المرابطية.[212]

إن رواية الزهري مضطربة شكلا ومضمونا، الشيء الذي لا يسمح لنا بتبيّن دلالاتها بشكل واضح وصريح. ذلك أننا لا نعرف على وجه الدقة من خلال روايته، هل يقصد استيلاء المرابطين على غانة عام 469هـ / 1076م، أم فقط اعتناق أهلها للاسلام على أيديهم[213] ؟

مهما يكن من هذا الأمر، فإن جغرافينا سيعود ليحدثنا عن تحالف ما بين أهل غانة العاصمة والمرابطين بهدف الجهاد ضد الكفار، مما يعني أن كليهما وخاصة مملكة غانة، ما تزال محتفظة بكيانها ووحدتها السياسية.[214]

ويأتي صاحب الاستبصار ليمدنا بإشارة تاريخية فريدة، تساير التصور الأخير، ومفادها أنه اطلع على مراسلة رسمية جرت بين ملك غانة ويوسف بن تاشفين، الذي حكم المغرب من سنة 453 إلى سنة 500هـ / 1062 ـ 1106م.[215]

---

212 ـ راجع تعليقنا في هامش رقم 131.

213 ـ إن العلاقة ما بين تأكيد أطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة وضرب مصداقية روايات الإدريسي، تجد أساسها ـ كما لمحنا إلى ذلك ـ في الحساسية السلبية تجاه الاسلام. وهذه الفكرة التي وقفنا عندها سابقا (انظر هامش رقم 193)، يمكننا أن نتأكد منها مرة أخرى، حين متابعتنا لكيفية تعامل المعتقدين في صحة الغزو المرابطي مع روايات الزهري، ذلك أن الشطر الأخير من رواية جغرافينا (وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء إلخ)، لا تجد لديهم نفس الجاذبية والمصداقية التي لاحظناها بالنسبة للشطر الأول من الرواية، ولذلك لا يستغلونه للتأكيد على مدى تطور تجربة الإسلام في مملكة غانة.

214 ـ الزهري، كتاب الجعرافية، ص 126. إذا اعتقدنا في خضوع غانة للمرابطين بناءا على رواية الزهري، فكيف لنا أن نوفق ما بين تحالفهما بقصد الجهاد ضد الكفار، وبين خضوع الواحدة للأخرى؟! ومهما يكن من هذا الأمر، فإن فكرة التحالف بقصد الجهاد، لها دلالتها بالنسبة لما قلناه سابقا عن سكوت غانة إزاء التحركات العسكرية الجهادية المرابطية والتكرورية داخل حدودها. راجع تعليقنا في هامش رقم 71 وص.39 ـ 40.

215 ـ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985. ص 219. لا سبيل هنا إلى تحديد سنة أو تاريخ المراسلة بالضبط. ونرجح أنها تمت حوالي سنة 480هـ / 1087م أو قبلها بقليل.

فهل يمكن بعد هذا، أن نعتمد رواية الزهري كشهادة مصدرية على واقعة الغزو المرابطي لمملكة غانة!؟

- روايات أهل التاريخ : ابن عذاري، ابن أبي زرع، ابن خلدون.

جرت العادة عند الباحثين المعتقدين في الغزو المرابطي لمملكة غانة، تفضيل رواية ابن أبي زرع على رواية ابن عذاري. وهم محقون في ذلك، نظراً للإغراءات التي يقدمها لهم صاحب **القرطاس**، أما صاحب **البيان** فلا يمكنه أن يساعدهم بأي شيء ذي بال، وربما أحرجهم.[216]

يذكر ابن أبي زرع، أنه بعد اختلال أمر الصحراء نتيجة ثورة جدالة على القيادة المرابطية عام 453هـ / 1061م، ترك أمير المرابطين أبو بكر بن عمر أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين، وارتحل **بنصف جيش المرابطين** إلى الصحراء "فهدنها وسكن أحوالها وجمع جيوشا كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر".[217]

وبعد ذلك عاد أبو بكر ليسترد مُلك المغرب من ابن عمه، فلم يتمكن من تحقيق رغبته، الشيء الذي دفعه للتوجه مرة أخرى - وأخيرة - إلى الصحراء، حيث

---

216 - إذا اعتبرنا الزهري قد أخطأ في الإسم لا غير، وقلنا إنه كان يقصد أبا بكر بن عمر اللمتوني وليس يحيى بن أبي بكر المسوفي، ثم نأخذ بروايته على أنها تقصد فتح المرابطين لغانة عام 469هـ / 1076م، فإن ابن عذاري (ج 4، ص 26) سيحرج المعتقدين في الأطروحة، لأنه يخبرنا أن أبا بكر بن عمر قد قتل عام 468هـ / 1075م، أي قبل الفتح المرابطي المزعوم من طرف الزهري.

217 - ابن أبي زرع، ص 134 - 135. ويذكر صاحب البيان (ج 4، ص 21)، أن الأمير ذهب بثلثي الجيش وترك الثلث ليوسف. وبما أن المادة المصدرية لا تقدم لنا رقما معينا عن عدد الرجال الذين رافقوا الأمير أبا بكر إلى الصحراء سواء أثناء عودته الأولى أو الثانية، فقد كان هذا مدعاة للباحثين للإغراق في الاحتمالات التقديرية. وتجدر الإشارة هنا، خاصة بالنسبة للمعتقدين في أطروحة الغزو، أنهم لم يلتفتوا إلى استدراك وارد عند ابن أبي زرع (ص138)، مفاده أن الجيش الذي رافق أبا بكر أثناء عودته الأولى للصحراء، كان قوامه 40 ألف رجل. وهذا العدد الهام من الرجال كان منهكا بحرب برغواطة كما رأينا سابقا.

"أقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلى أن استشهد رحمه الله وذلك في شهر شعبان المكرم سنة ثمانين وأربعمائة [نونبر 1087م] بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان وخلص الأمر ليوسف بن تاشفين من بعده".(218)

والمتتبع لبداية الحركة المرابطية، يصعب عليه استهلاك روايات ابن أبي زرع ـ المتقدمة ـ دونما مواجهة أو استحضار لشهادات البكري. يذكر هذا الأخير، أن جدالة قد خالفت عبد الله بن ياسين، فأرسل إليهم سنة 448هـ / 1056م أمير المرابطين (قائد الجيش المرابطي) إذ ذاك يحيى بن عمر لمقاتلتهم، ثم ألحق به أخاه أبا بكر بن عمر رفقة عدد آخر من المرابطين. وعلى الرغم من تحالف القائدين مع رئيس التكرور، فإن قوتهم لم تستطع التصدي لجدالة نظرا لكثرة وقوة رجالها (30 ألف رجل)، فانهزم المرابطون، وقتل أميرهم يحيى في نفس السنة، ثم أضاف البكري قائلا : "ولم تكن للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة".(219)

وبعد الإشارة إلى مقتل عبد الله بن ياسين عام 451هـ / 1059م، واستعراض بعض أطواره مع صنهاجة اللثام، انتهى البكري إلى القول : "وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة [460هـ / 1067م] أبو بكر بن عمر، وأمرهم [المرابطين في الصحراء] منتشر غير ملتئم".(220)

لقد أتينا بشهادة البكري لأنها تغطي جزءا هاما من أحداث العودة الأولى للأمير أبي بكر إلى الصحراء (فيما بين 453 و465هـ)، كما قدمها لنا ابن أبي زرع في روايته الأولى (فهدّنها وسكن أحوالها... ثلاثة أشهر).

وكما نلاحظ، هناك تناقض كبير بين الروايتين، ذلك أن صاحب **القرطاس** يتحدث عن فتوحات في بلاد السودان، لا يعقل أن تتحقق إلا في ظل دولة

218 ـ ابن أبي زرع، ص 135 ـ 136.
219 ـ البكري، ص 168.
220 ـ البكري، ص 170. وراجع ما جاء في هامشي 36 و156.

متعـدّدة وجيش قوي ؛ بينما تلح رواية البكري على أن أمر المرابطين دينيا كان منتشرا، في حين كانت حالتهم السياسية في الصحراء متدهورة، نتيجة الصراع ما بين جدالة وزعامة الحلف بقيادة أبي بكر بن عمر اللمتوني.

لنعد إلى رواية ابن أبي زرع، ونتساءل : في أي فترة فتح أمير المرابطين أبو بكر بن عمر بلاد السودان بما فيها مملكة غانة، هل تمّ ذلك أثناء عودته الأولى للصحراء (453 ـ 465هـ) أو الثانية (465هـ ـ 480هـ) ؟

لن نحرج أنفسنا بمحاولة الجواب عن السؤال، لأن المصادر تستعظم علينا معرفة ذلك بالتدقيق. وبالقفز على هذا المشكل، يمكننا اختزال تصور أو رواية صاحب **القرطاس** على الصيغة التالية : إن أبا بكر بن عمر قبل استشهاده عام 480هـ / 1087م، قد فتح من بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر، وأن الأمر قد استقام له من بلاد الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان.

لنأخذ رواية ابن أبي زرع، ولنحاول قراءتها أو ترجمتها وفهم أبعادها :

على المستوى العسكري، نهيب بالمعتقدين في أطروحة الغزو المرابطي أن يستفيدوا من إشارة صاحب القرطاس[221]، المتعلقة بعدد الرجال الذين رافقوا أبا بكر بن عمر إلى الصحراء ؛ لأن مثل هذه الشهادة لابد وأن تدعم موقفهم. أما قولهم بأن جيش الأمير المرابطي لم يتجاوز عدده بضع آلاف أو مئات، سيجعلهم يقوضون أطروحتهم بأيديهم، وسيعرضهم لانتقادات هم في غنى عنها لو دققوا في الأمر مليا. ذلك أنه لا يعقل أن يكون ذلك العدد القليل الذي يتحدثون عنه، قادرا على هزم ثلاثين ألفا من جيوش جدالة ومائتي ألف من جيوش غانة.[222]

وفيما يخص عُدّة الجيوش المرابطية والغانية، يظهر لنا من مقارنة الشهادات المصدرية أنها متكافئة، ولا نلاحظ أي تميز لفئة على أخرى.[223]

221 ـ راجع تعليقنا في هامش رقم 217.
222 ـ البكري، ص 167 ـ 177. وبموازاة مع ذلك، علينا أن نستحضر هنا الهزيمة النكراء للمرابطين أمام جدالة عام 448هـ / 1056م.
223 ـ الزهري، ص 125، البكري، ص 166.

لننزل الآن إلى ساحة الميدان، ونقول مع ابن أبي زرع - دون أن نشك في روايته - إن المرابطين قد تمكنوا من فتح بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر. وإذا ترجمنا هذه العبارة إلى أرقام، فسنحصل على ما لا يقل عن 3000 كلم.[224] ثم ننطلق بهذا الرقم من عاصمة المرابطين في الصحراء : أزكي، أو من مدينة أرتنني التي بناها عبد الله بن ياسين[225] ؛ وحينما نقطع المسافة المذكورة، فإننا بدون شك لن نستولي على مملكة غانة فحسب، وإنما كذلك على مناطق شاسعة جنوب المملكة. وبما أن الأمر قد استقام لأبي بكر كما يؤكد ابن أبي زرع، فهذا يعني أن الأمير قد وضع يده على كل أو جل مناجم الذهب في بلاد السودان.[226]

والحالة هذه، ما الذي يمكن أن يثيره في ملك ابن عمه يوسف بن تاشفين، الذي أراد استرجاعه عام 465هـ / 1072م : الجهاد بهدف نشر الاسلام أو المال والجاه ؟

يذكر ابن أبي زرع، أن أبا بكر بن عمر كان رجلا صالحا كثير الورع ولا يقاتل على الدنيا.[227] على هذا الأساس، يكون جهاد الوثنيين بالسودان أو العمل على نشر الاسلام بينهم، أولى له من محاربة قبائل (في المغرب الأقصى) أسلمت قبل أن يعرف أجداده الاسلام.

أما إذا كان يطمع في المال والجاه، فإنه بفتوحاته في بلاد السودان كما صورها ابن أبي زرع، قد أصبح يملك امبراطورية تفوق مساحتها مساحة مملكة ابن

224 - المرحلة = اليوم = 30 إلى 40 كلم. وهناك عدة معطيات مختلفة ومتنوعة (طبيعية ومناخية وسياسية واجتماعية) تتحكم في مسيرة اليوم الواحد. وقد اقتصرنا على التقدير الأدنى.

225 - أرتنني قريبة من أزكي، وهاته الأخيرة تبعد عن سجلماسة ب 13 مرحلة، وعن مدينة تكرور ب 25 مرحلة. انظر : البكري، ص 165 و167. الإدريسي، ص 3، 30، وخاصة 60.

226 - فيما يتعلق بقصة الذهب في بلاد السودان سواء على المستوى الاصطلاحي أو القضايا المرتبطة بمواقع مناجمه، وكمية إنتاجه وغير ذلك، انظر :
Mauny R., Tableau Géographique..., pp. 293-306 et 416-419. Cuoq J., Recueil..., p. 42 note 5.

227 - روض القرطاس، ص 138 - 134. ونجد نفس الأوصاف عند ابن عذاري، ج 4، ص 23 - 24.

عمه يوسف مرات عديدة. حقا، إنها غير متطورة حضريا وحضاريا، لكن في المقابل علينا ألا ننسى أن أبا بكر بفتوحاته تلك، أصبح يتحكم في عصب الحياة الاقتصادية العالمية إذاك : الذهب. وفضلا عن ذلك، يمكنه أن يدعم اقتصاده المبني على الذهب بتجارة الرقيق السوداني، والخشب، ومستحقات ضرائب المرور المفروضة على القوافل التجارية فيما بين ضفتي الصحراء. وإلى كل هذا، تنضاف الكميات الوافرة من الذهب التي سيحصل عليها أميرنا في عاصمة مملكة غانة.[228]

علينا إذن، أن نأخذ رواية صاحب **القرطاس** بهذه الأبعاد حينما نقبل بأطروحة الغزو المرابطي لمملكة غانة. ومثل هذا الطرح لا يستقيم ونحن نرى أمير المرابطين أبا بكر بن عمر عند عودته الأخيرة للصحراء - على إثر فشله في استرجاع مُلك المغرب -، يستقبل هدية يوسف بن تاشفين باستكبار، ويقول في حقها - كما رأينا - : "خير كثير هذا من يوسف".

وإقامة مقارنة بسيطة ما بين قيمة الهدية وقيمة ما يمكن أن يحصل عليه الأمير أبو بكر من ذهب في عاصمة مملكة غانة وحدها[229]، كاف لأن يدفعه إلى استصغار هدية يوسف، بل ورفضها لعدة اعتبارات، أقلها : الطريقة غير اللائقة التي قابله بها بفحص البرنس حين محاولته استرجاع ملك المغرب.

بموازاة مع ما تقدم، كيف لنا - حسب رواية ابن أبي زرع - أن نضع يوسف وأبا بكر في مواجهة حاسمة، يخرج منها الأمير خاسرا سياسيا وعسكريا، وفي ذات الوقت ننتقل بالأمير إلى الصحراء، ونجعله قادرا على تمهيد بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر!

228 - يقدم لنا البكري وصفا مثيرا عن ممتلكات الملك الغاني من المعدن الأصفر، حيث كان الذهب يموه كل شيء - تقريبا - في قصره. انظر : البكري، ص 175 - 176.
ونشير هنا، أن لائحة النتائج المترتبة عن الغزو المرابطي لمملكة غانة يصعب تحديدها، لذا نرجو من القارئ أن يساعدنا بخياله العلمي في تمثل الموقف. وفصلنا بين رغبات الأمير : إما في الجهاد أو المال والجاه، يبقى مجرد عمل منهجي لا غير، وللقارئ أن يوحدها ويضيف إليها ما شاء في إطار التصور الذي نطرحه.

229 - البكري، ص 174 - 178. ابن عذاري، ج 4، ص 26. ابن أبي زرع، ص 135. ابن السماك، ص 16 - 17.

إننا ونحن نتتبع رواية **القرطاس**، لم نكن نهدف إلى توضيح موقفنا منها، بقدر ما كنا نرغب في قراءتها بعيون المعتقدين فيها، والوقوف معهم عند الثغرات التي ترصع تلك القراءة.

وكما بدا واضحا، فإن رواية ابن أبي زرع حبلى بالتناقضات الصارخة، التي تصعب استساغتها، فبالأحرى اعتمادها كشهادة دامغة في قضيتنا.

ونعتقد أن المشاكل التي تطرحها رواية **القرطاس**، تكمن في طبيعة البنية الفكرية التي يَصْدُرُ عنها صاحبنا. لذا، فإن الإقتراب من شخصية المؤلف وتكوينه الثقافي ومنهجه التاريخي، يمثل المدخل السليم لقراءة لغته وأفكاره بأبعادها العميقة؛ الشيء الذي يؤهلنا ويجعلنا أكثر اقتداراً على فهم وتفهم روايته شكلا ومضمونا.

خلفيات رواية ابن أبي زرع عن الغزو المرابطي لملكة غانة.

بغض النظر عن المشكل الذي يثيره اسم المؤلف الحقيقي لروض **القرطاس**، فإن مصنفات التراجم وغيرها، لا تساعدنا في الكشف عن حياة ابن أبي زرع، وتجربته مع الكتابة التاريخية.[230] بيد أن هذا العائق لن يحول بيننا وبين مبتغانا بشكل حاسم، ذلك أن متابعة إنتاج مؤرخنا خاصة من خلال **روض القرطاس**، يسمح لنا بتسليط بعض الضوء على جوانب من شخصية المؤلف ومنهجه التاريخي.[231]

في إطار هذه الحدود، يمكننا القول إننا أمام فقيه متواضع الثقافة. ولعل في أسلوبه وحده ما يحيلنا على هذا المستوى، ذلك أن فقيهنا كان ينقل عن بعض

230 ـ انظر المقدمة التي مهد بها عبد الوهاب بنمنصور تحقيقه لروض القرطاس، ص 5 ـ 9.

231 ـ يتناول "روض القرطاس" تاريخ المغرب الأقصى عموما وتاريخ مدينة فاس خصوصا، من بداية الدولة الإدريسية عام 172هـ إلى عام 726هـ. والتاريخ الأخير، يوافق عهد السلطان المريني عثمان بن يعقوب المشهور بكنيته أبي سعيد (710 ـ 730هـ). وتختلف طريقة ابن أبي زرع في الكتابة عن طريقة أصحاب الحوليات التي سار عليها غالبية الاخباريين في العصر الوسيط، فهو لا يؤرخ حسب السنوات مثلما فعل ابن عذاري، وإنما حسب الدول.

الإخباريين دون أن ينسب إليهم كلامهم ؛ وترتب عن هذه الحالة، أن جاءت عباراته خليطا من مستويات لغوية متعددة، تتأرجح وتتراوح ما بين الجودة والركاكة.

وبالنظر إلى تكوينه الثقافي وضعف سياحته[232]، فقد كانت شهاداته ونظرته للأشياء والوقائع والأحداث مشحونة بالتصورات الدينية. وقد يبدو الأمر عاديا بالنسبة لزمن عصره، لكن تضخم المسألة لدى صاحبنا أثرت كثيرا على قلمه وكادت أن تلغي مفهوم الزمن (= التاريخ) لديه.

لهذه الأسباب وغيرها، فإننا لا نستغرب حينما نجد الإطار الديني عنده يغذي ويلبس الواقعة التاريخية بشكل مكثف، لدرجة يصبح معها عبد الله بن ياسين وتلامذته مجرد نماذج مصغرة لعقبة بن نافع الفهري وأصحابه بفتوحاتهم وكراماتهم.[233]

وانتصارات المسلمين على الكفار السودان أو غيرهم، تنسيه موقعه كمؤرخ، فيندفع في تصويرها بنفس الشحنة القدسية التي ينبغي أن نستحضر بها معارك الرسول صلى الله عليه وسلم ضد المشركين[234] ؛ الشيء الذي يجعله يطلق العنان للكلمات دون أي تقدير.[235]

232 ـ كان ابن أبي زرع شاهدا بسماط العدول بفاس، ونحس أنه لم يبارح هذه المدينة قط.

233 ـ انظر الأسلوب الجاف الذي قدم به البكري عبد الله بن ياسين (ص 165 ـ 170)، ثم قارنه مع أسلوب وعبارات التنويه التي أصبغها ابن أبي زرع على إمام المرابطين. انظر روض القرطاس، ص 123 ـ 133. ويمكننا بهذا الخصوص، استحضار روايات ابن خلدون عن عبد الله بن ياسين للمقارنة. العبر، المجلد 6، ص 371 ـ 376.

234 ـ هذا ما نستشعره من خلال تصوير ابن أبي زرع لمعركتي الزلاقة والأرك. في حين نلاحظ اقتصادا كبيرا لدى ابن عذاري في كلامه عن المعركتين وخاصة معركة الأرك. وللتذكير فإن كلا المؤرخين عاصرا بداية القرن الثامن الهجري (14م). انظر : روض القرطاس. ص 145 ـ 152. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 118 ـ 221.

235 ـ صاحب القرطاس دائما يردف ـ وبطريقة تلقائية ـ كلمة الكفار بكلمة السودان. وهذا يعكس مدى جهله بتجربة الاسلام ببلاد السودان خلال القرن 5هـ / 11م وما بعده. ويكفي هنا أن نشير إلى أن الاسلام اكتسب مواقع هامة في المنطقة منذ ذلك التاريخ، وحتى قبل قيام الحركة المرابطية.

ويظهر أن فقيهنا لم تكن تهمه الحركة المرابطية كحدث تاريخي بقدر ما كان يثيره الجانب الديني منها، الذي أعطى للحركة إشعاعها بين المسلمين، فوظف الحدث التاريخي للتأكيد على عظمة رجال خدموا الاسلام ونصروه.

وعلينا أن نقدر موقف فقيهنا المالكي، ونحاول مقاربة لحظته التاريخية ومعاناته في التعبير عنها، حتى نتمكن من استكناه خلفيات كلامه عن فتوحات الأمير أبي بكر في بلاد السودان.

فقد كان ابن أبي زرع يرى بأم عينيه في دروب وأزقة ومساجد مدينة فاس وربما في غيرها من المدن المغربية، حصيلة أعمال عبد الله بن ياسين وتلامذته : رسوخ الاسلام في المجتمع المريني، واندحار البدع، وانتصار المذهب المالكي، واختفاء أو تراجع جميع المذاهب والنحل التي كانت تنافسه. وفي الوقت الذي كان يعيش فيه صاحبنا هذه المظاهر الإيجابية، كان عليه أن يقبل بجزاء غير عادل لهؤلاء الرجال الذين خدموا الاسلام وجاهدوا في سبيله. فعبد الله بن ياسين قتله مجوس برغواطة عام 450هـ / 1058م، ويحيى بن إبراهيم الجدالي مات في ظروف غامضة، ويحيى بن عمر اللمتوني قتلته جدالة سنة 448هـ / 1056م، وأبو بكر بن عمر اللمتوني على الرغم من زهده في الدنيا، عجز عن تأديب جدالة وجمع كلمة صنهاجة، وفوق ذلك جاء ابن عمه يوسف ليغصبه الملك، ويعمل على هدّ بيته في الصحراء، ليضيع الرجل بعد ذلك ويقتل بسهم مسموم سنة 480هـ / 1087م.

أمام هذه المآسي، كيف لنا أن لا نواسي هؤلاء الرجال الذين خدموا الاسلام بنية وعزيمة صادقتين، ونحقق آمالهم وطموحاتهم العسكرية على الأقل في واقع الخيال، ونجعلهم يفتحون من بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر على قول ابن أبي زرع. ومما لاشك فيه، أن كل مسلم عميق الإيمان في المغرب المريني، سيصغي إلينا بكل جوارحه وكامل وجدانه وسيحمد الله على تحقق مثل هذا الفتح المبارك. وفي هذا السياق، فإن أحداً لن يتجرأ على معارضة مثل هذا القول، لأن الوقت ـ المغرب المريني في مستهل القرن 8هـ / 14م ـ كان محتاجا لمثل هذه الملاحم

والانتصارات لمواجهة الضغط المسيحي المتراكم والمتزايد منذ هزيمة العقاب 609هـ / 1212م.

لم تكن لفقيهنا رغبة قوية لمعرفة حقيقة الأعمال التي قام بها عبد الله بن ياسين وتلامذته ـ ربما أعوزته المصادر ـ، لكن ذكرى هؤلاء الرجال كانت ماتزال تعمل بقوة في مخيلة[236] المغاربة عند بداية القرن الثامن الهجري (14م)، فأبى ابن أبي زرع إلا أن يسجل لنا أصداء الذكرى كما تعمل في المخيّلة، وليس كما تمت في الواقع.[237]

في إطار هذه المعطيات، يجدر بنا أن نقف عند المعاني والشحنات التي قصدها ابن أبي زرع من توظيفه لكلمتي أو اصطلاحي **السودان** و**بلاد السودان**. ذلك أن فقيهنا بثقافته المحدودة، كان يستعمل ذينك الاصطلاحين كفضاء رمزي وليس كواقع تاريخي وجغرافي.[238] ونكاد نجزم أن المستوى الثاني لم يكن يعرف عنه شيئا. من ثمة، نفهم سكوته المطبق عن الصحراء وبلاد السودان بعد استشهاد أبي بكر بن عمر عام 480هـ / 1087م.

أكيد أنه كان يعرف أو بالأحرى يسمع بوجود الذهب في بلاد السودان. ويظهر لنا أن هذه المعلومة كانت الوحيدة من بين معلوماته الصحيحة، التي أطرت ذهنه حين توظيفه لذينك الاصطلاحين. فلا غرابة إذن، أن يسود الغموض والضبابية في كلامه عن جبل الذهب[239] الواقع في بلاد السودان، بحيث لانتبين في تعبيراته ما يحيلنا على أنه عارف بمقاصد كلامه عن الأرض والإنسان السودانيين.

---

236 ـ لايظن أن المخيلة تعمل انطلاقا من الفراغ، فما تنتجه يكون مؤسسا على بعض الوقائع الحقيقية، تمت بلورتها في الاتجاه الذي يريد صاحبها حسب الظروف المحيطة به.

237 ـ أكيد أن ابن أبي زرع كمؤرخ، انطلق من المعلومات المتوفرة لديه عن بداية الحركة المرابطية، وقد رصد لنا الكثير منها، لكن طريقة توظيفها كانت تسير في الاتجاه الذي رسمناه.

238 ـ نقصد هنا أن توظيف ابن أبي زرع للمصطلحين لا يتجاوز الدلالة اللغوية، كأن نقول العجم تمييزا لهم عن العرب، دون أن ندرك أو نستطيع تحديد موقعهم الجغرافي وتاريخهم إلخ.

239 ـ روض القرطاس، ص 136. انظر وقارن مع محاولة كل من الإدريسي وابن سعيد للتعريف بجبل الذهب. نزهة المشتاق، ص 16. كتاب الجغرافية، ص 28 ـ 29.

ولو كانت له معرفة بالمنطقة وأهلها، لما تأخر لحظة واحدة في قطف ثمرات الحركة المرابطية في بلاد السودان. بل إن أحداثا سودانية هزت المشرق الاسلامي وبلغت أصداؤها أوربا، لم يسجل لنا عنها شيئا، ونقصد حج منسا موسى أشهر ملوك امبراطورية مالي المسلمة، الذي تم قبل سنتين من انتهاء ابن أبي زرع من تأليفه.[240]

مؤدى القول، علينا أن نحترز كثيرا قبل استهلاك اصطلاحي **"السودان"** و**"بلاد السودان"**، بالصيغة التي استعملهما ابن أبي زرع، فهما فارغان من أي محتوى جغرافي أو تاريخي.

قبل الانتقال لمعالجة رواية ابن خلدون عن قضية الغزو المرابطي لمملكة غانة، نرى من المفيد جدا إقامة مقارنة بين رواية **القرطاس** ورواية **البيان** في تناولهما لجهاد أبي بكر بن عمر في الصحراء وبلاد السودان.[241]

لقد تعرفنا على روايتي ابن أبي زرع، أما ابن عذاري فإنه يذكر أن أبا بكر بن عمر اللمتوني عند عودته الأولى للصحراء إبان ثورة جدالة[242]، قام بمحاربتها "حتى أخذ ثأره منهم"، ثم التزم الصمت ولم يضف شيئا آخر عن أعمال الأمير في الصحراء خلال هذه الفترة. غير أنه عند العودة الثانية والأخيرة للأمير سنة 465هـ / 1072م، سجل ابن عذاري أن أبا بكر بن عمر : "أقام بصحرائه ثلاثة أعوام [...] إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان

240 ـ يقف ابن أبي زرع بأحداث مؤلفه (روض القرطاس) عند عام 726هـ / 1326م ؛ وكان حج منسا موسى سنة 724هـ / 1324م.

241 ـ الاعتبارات التي دعتنا إلى عقد هذه المقارنة : 1 ـ الأهمية المصدرية لشهادات كل من ابن عذاري وابن أبي زرع عن تاريخ بداية الحركة المرابطية. 2 ـ التقارب الزمني في تدوين البيان والقرطاس، بحيث لا يتجاوز 15 سنة. 3 ـ انتماؤهما لأهل التاريخ.

242 ـ هناك اختلاف بين روايتي البيان والقرطاس فيما يخص تحديد تاريخ بعض الأحداث المتعلقة ببداية الحركة المرابطية، ومنها اختلافهما في تحديد تاريخ العودة الأولى للأمير، حيث يذكر ابن عذاري أنها كانت سنة 463هـ بينما يسجل ابن أبي زرع 453هـ. ونرجو من القارئ أن لا يقلق كثيرا لهذا المشكل، إذ ليست له أهمية بالغة فيما نحن الآن بصدده.

يحاربهم، حتى قضى الله بوفاته بسهم أصابه فيه منيته، وذلك في سنة ثمان وستين وأربعمائة [468هـ]".[243]

وبمقارنة الروايتين، يمكننا أن نقف عند بعض الملاحظات الأساسية، ولمساعدة القارئ على تتبعها، نسجل أولا أهم الكلمات أو العبارات الواردة في كل رواية :

- ابن عذاري : ثأر، صحرائه، قتله، السودان المجاورون للمتونة، كان يحاربهم.

- ابن أبي زرع : بلاد الصحراء، جهاد، غزواته، الكفرة من السودان، بلاد السودان.

الملاحظة الأولى : ابن عذراي لا يتحدث عن غزو أبي بكر لبلاد السودان أو مملكة غانة.

الملاحظة الثانية : ابن أبي زرع لا يهتم كثيرا مثل ابن عذاري بذكر سنوات أو تواريخ الأحداث، ولا يسجل لنا سوى تاريخ العودة الأولى للأمير (سنة 453هـ) وتاريخ وفاته (480هـ). في حين يضيف ابن عذاري تاريخ العودة الثانية ويحدد لنا مدة إقامة الأمير أبي بكر بالصحراء (ثلاثة أعوام).

الملاحظة الثالثة : في خلال العودة الأولى للأمير، نجده مع ابن عذاري لا يفعل شيئا غير الأخذ بثأره من جدالة، ولم يحدثنا عن فتح بلاد السودان مثلما فعل صاحب **القرطاس**. كما تسجل اختلاف الروايتين بخصوص العودة الثانية للأمير، حيث نلاحظ أن ابن عذاري لا يتحدث سوى عن حروب للأمير، جرت له مع السودان، وانتهت بمقتله. وبالتالي، فإنه لا يؤكد لنا انتصاراً أو انهزاما في تلك الحروب.

الملاحظة الرابعة : أثناء كلام ابن عذاري عن العودة الثانية، نلاحظ أنه لا يتحدث سوى عن صحراء أبي بكر (صحرائه)، أي مجال لمتونة. وبذلك، فإن

243 - ابن عذاري، ج 4، ص 26.

الكلمة تضمر ما سبق أن أشار إليه من اختلاف أمر صنهاجة، وتحديدا صراع جدالة مع لمتونة وهجوم الأولى على الثانية. الشيء الذي استلزم عودة الأمير للأخذ بثأر قومه. وصاحب **البيان** حينما استعمل كلمة "**صحرائه**"، يدلنا على أن أمر اختلاف لمتونة وجدالة ما يزال على حاله، وأن الأمير ربما يكون قد أخذ بثأره، غير أنه لم يتمكن من توحيد كلمة صنهاجة. لذلك كان من السهل أن يقتله السودان المجاورون لصحراء لمتونة. وتوظيف ابن عذاري لكلمتي "**قتل**" و "**يحاربهم** = **حروب**"، يساير هذه القراءة التي يدعمها التحليل التاريخي كما أبصرنا سابقا. وإذا رفضناها، علينا أن نحتفظ بالموقف المحايد فلا نؤكد انتصار ولا انهزاما، ونترك أميرنا في مجال صحراء لمتونة لا غير، إذ الذين قتلوه مجاورون له.

في المقابل، نجد رواية ابن أبي زرع تتحدث عن "**بلاد الصحراء**"، والمقصود صحراء صنهاجة اللثام بأكملها، مما يوحي بأن لا خلاف بين القبائل، وأن كلمتهم مجتمعة، بل إن صاحب **القرطاس** يريدنا أن نقبل إيحاءه ذاك كمسلمة. ذلك أنه لا يعقل أن يكون الأمير قد استولى على بلاد السوادن، دون أن يكون قد مهّد جميع بلاد صنهاجة، وجمع كلمة قبائلها تحت لوائه. وتأتي كلمة "**غزواته**" التي وظفها في روايته، لتشعرنا بمدى قوة وتفوق جيش أبي بكر من الناحية العددية والعسكرية. ومما لاشك فيه أن الحمولة الدلالية لكلمة "**غزو**"، لن نجدها في كلمة "**حرب**" التي وظفها ابن عذاري.

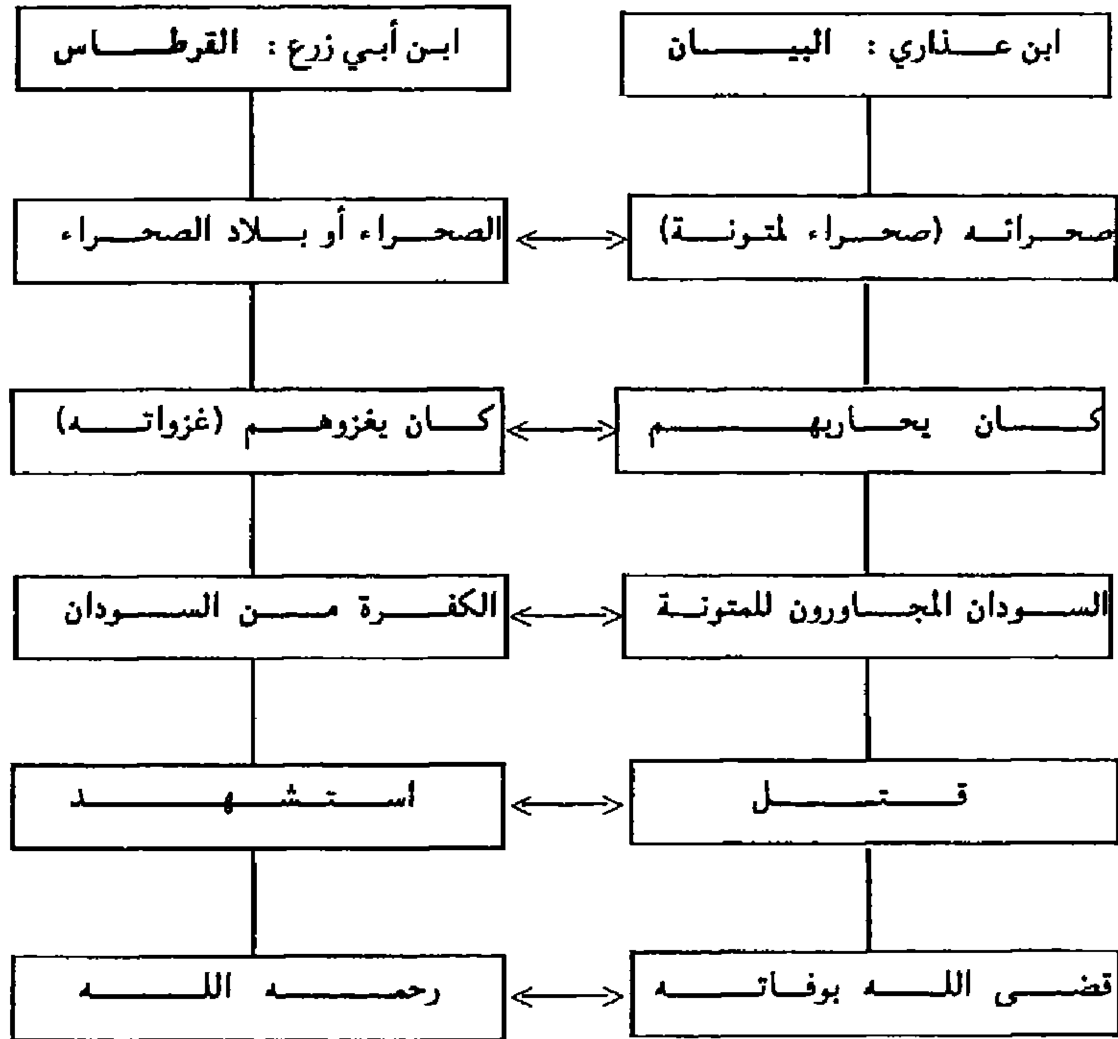
هكذا كان من السهل على ابن أبي زرع أن يوهم قراءه، أن الأمير أبا بكر بتفوقه العسكري ذاك، بإمكانه الاستيلاء على بلاد السودان مسافة مسيرة ثلاثة أشهر. ونزداد ثقة في أقواله / أوهامه، إذا ما قرأناها بموازاة مع رواية الزهري التي عالجناها سابقا.

الملاحظة الخامسة : بمتابعة الدلالات اللغوية والاصطلاحية للكلمات والعبارات الواردة في روايتي **البيان** و**القرطاس**، نلاحظ ونسجل حياد وموضوعية ابن عذاري.[244] في المقابل، نكتشف ونقف مع لغة ابن أبي زرع

244 - انظر مقدمة تحقيق البيان، قسم الموحدين، ص 10.

على ما سبق وأن سجلناه من اجتهاده في التركيز على البعد الروحاني (الديني) للواقعة أو الحدث التاريخي، وإهمال مادون ذلك. وإذا اتخذت الواقعة التاريخية مظهرا دينيا بارزا، يصبح الزمن - بالمعنى الفيزيائي للمصطلح - غير ذي أهمية بالنسبة لابن أبي زرع. وهذا ما يفسر الملاحظة الثانية التي سجلناها.[245]

والجدول التالي، الخاص بمقابلة بعض الكلمات والعبارات التي وظفها كل من ابن عذاري وابن أبي زرع للتعبير عن أحداث العودة الثانية للأمير، يفصح بوضوح عن تمايز لغة كل واحد منهما، ويؤكد الملاحظات التي وقفنا عندها بهذا الخصوص :



245 - انظر روض القرطاس (ص 124 - 127)، حيث يظهر أن ابن أبي زرع قد انشد لشخصية الإمام عبد الله بن ياسين لصلاحها وتقواها وأعمالها الدينية، فلم يعد عندئذ الزمن قادرا على احتواء الفضاء القدسي للحظة التاريخية التي يتناولها. هكذا، نجد ابن أبي زرع لا يسجل لنا فيما بين دخول الإمام لبلاد صنهاجة سنة 430هـ وسنة 447هـ سوى تاريخ واحد، وهو سنة 434هـ.

ابن خلدون وقضية الغزو المرابطي

جاء في العبر : "ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزي وحملوا كثيرا منهم على الاسلام فدانوا به. ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو وأصاروهم في جملتهم".(246)

والمدقق في القضية، لن يغامر باستهلاك الرواية أو معالجة مضمونها قبل تحديد مصادر ابن خلدون عن غانة وبلاد السودان بصفة عامة.

وباستقراء روايات العبر عن منطقتنا، يمكننا أن نقف دون كبير عناء، على آثار البكري والادريسي وابن سعيد، وخاصة ابن أبي زرع. وبموازاة مع ذلك، توفرت لابن خلدون فرصة تعميق معرفته بذات الموضوع عن طريق الرواية الشفوية، وذلك أثناء لقائه بالقاهرة (حوالي عام 792هـ / 1390م) مع الشيخ عثمان فقيه أهل غانة. ومما أسنده مؤرخنا للفقيه الغاني، قوله : "وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو".(247)

ويبدو واضحا من سياق هذه الرواية الشفوية، أنها جاءت كجواب على سؤال وضعه ابن خلدون على الشيخ عثمان، مفاده : ما قولك في الفتح المرابطي لمملكة غانة؟

وكان الجواب كما أبصرنا واضحا وصريحا. بيد أن مثل هذا القول الذي ينفي الغزو أو الفتح المرابطي لمملكة غانة، لا يساير رواية ابن أبي زرع - في

246 - العبر، المجلد 6، ص 413. والتشديد منا، وأثناء كلام ابن خلدون عن المرابطين قال : "ورفع [أبو بكر] ما كان بينهم [يقصد صنهاجة الصحراء] من خرق الفتنة، وفتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم". العبر، المجلد 6، ص 377. وهذه الرواية لم نعرها أي اهتمام لأنها أصلا لابن أبي زرع.

247 - العبر، المجلد 5، ص 931. يذكر ابن خلدون في إحدى إشاراته أنه التقى بالشيخ عثمان سنة 799هـ / 1379م. غير أن المتتبع لكلام مؤرخنا عن بلاد السودان، سيتحقق من أن اللقاء كان حوالي سنة 792هـ / 1390م.

الأمر .. التي استبدت كثيرا بابن خلدون.[248] الشيء الذي وضع مؤرخنا في ورطة حقيقية، حاول تجاوزها بأن وَفّق من جهة ما بين مصداقية الرواية المدونة والرواية الشفوية، بحيث أكد على الغزو المرابطي ثم غزو شعب صوصو لغانة. ومن جهة أخرى، اجتهد في قراءة رواية صاحب **القرطاس**، بحيث وفّر الشروط الموضوعية الكفيلة بتحقيق ذلك الغزو المرابطي، كما حاول تحديد النتائج المترتبة عليه.

وإذا عدنا لرواية مؤرخنا، نلاحظ أو يتهيأ لنا للوهلة الأولى أنها تتميز ببعض الإضافات الجديدة.

أولها، تأكيده على ضعف مملكة غانة حتى يبرر قوة الجيش المرابطي وقدرته على غزو بلاد السودان. ومن ثمة فإن الانتصار على السودانيين (**أهل غانة**)، يعني أولا وقبل كل شيء حملهم على الاسلام.

ثانيها، حصول المرابطين على الإتاوات والجزي من السودانيين. وفي هذا ما يبرر في اعتقاده واعتقادنا، انسحاب الجيش المرابطي من الأراضي الغانية مقابل تلك الاتاوات والجزي.

على أننا إذا أخذنا هذه الإضافات ودققنا النظر في رواية ابن أبي زرع، نكتشف أن ابن خلدون لا يضيف لنا شيئا جديدا، وإنما يقرأ لنا بعقلية المؤرخ المحنك رواية صاحب **القرطاس** بما يفترض أن نأخذها به إذا نحن صدقناها.[249]

وصاحب **العبر** مشهود له بالأمانة العلمية وحدة حاسته النقدية، لذلك جاءت روايته عن قضيتنا، ملتزمة بروح رواية **القرطاس**، ولكن كذلك جاءت

---

248 ـ باستعراض روايات الإخباريين التي اعتمدها ابن خلدون، يتبين لنا أن المصدر الأساسي الذي كان يصدر عنه وهو يختزل تاريخ مملكة غانة في بضعة أسطر، يتمثل في مؤلف روض القرطاس، حيث استهلك الكثير مما جاء فيه بخصوص تاريخ صنهاجة اللثام وعلاقتهم ببلاد السودان. وللمقارنة، انظر العبر، المجلد 6، ص 370 ـ 377. روض القرطاس، ص 119 ـ 136.

249 ـ وهي تقريبا نفس القراءة التي قدّمناها سابقا أثناء عملنا على ترجمة رواية ابن أبي زرع على أرض الواقع.

لتعكس جوانب من عبقرية ابن خلدون في صناعة التاريخ. ويتجلى لنا هذا مرة أخرى في توظيفه لكلمة عبور[250]، وعزوفه عن استعمال كلمات مثل غزو أو فتح أو استيلاء.

ويظهر أنه وظف كلمة عبور على أساس أن المرابطين لم يبسطوا نفوذهم على مملكة غانة بعد انتصارهم عليها، واكتفوا منها بتلك الاتاوات والجزي التي أشار إليها.

ومهما يكن من أمر هذا الاحتمال، فإنه يمثل مخرجا ذكيا للورطة التي وضعنا فيها ابن أبي زرع.

مؤدى القول، إن معالجة مصادر ابن خلدون عن غانة، يمنحنا الثقة ونحن نقصي شهادته بخصوص الغزو المرابطي المزعوم لمملكة غانة. ويصبح من باب التجاوزات، الاعتداد بروايته كشهادة مصدرية عن قضيتنا. وبعبارة أدق، فشهادة ابن خلدون لا تمثل بالنسبة لنا سوى مرجع في القضية. لكنه مرجع ممتاز، يستحسن الاستئناس به، لأنه على الأقل يلهمنا في كيفية تعامل الباحث في التاريخ مع المادة المصدرية.

فهل حان الوقت للتخلص من وهم الغزو المرابطي لمملكة غانة!؟

---

250 ـ إنها لصدفة عجيبة حينما نلاحظ توظيف الزهري لكلمة خروج (راجع ص80) وابن خلدون لكلمة عبورا

الفهـــارس

- فهرس الأعلام
- فهرس القبائل والطوائف والشعوب والممالك
- فهرس الأماكن
- فهرس المصادر والمراجع

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

فهرس القبائل والطوائف والشعوب والممالك

فهـــرس الأمـاكـــن

أ

ب

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ المصادر :

ـ ابن أبي زرع (علي الفاسي) :

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس [روض القرطاس أو القرطاس]. الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.

ـ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين) :

الكامل في التاريخ. بيروت : دار صادر، 1965. (12 جزءا).

ـ ابن بطوطة (شمس الدين محمد) :

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت : مؤسسة الرسالة، 1985. (في جزءين) [تحقيق علي المنتصر الكتاني].

ـ ابن حوقل (أبو القاسم محمد البغدادي) :

صورة الأرض. بيروت : دار مكتبة الحياة، 1979.

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربي) :

كتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم في ذوي السلطان الأكبر (العبر). بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1956 ـ 1961. (في 7 أجزاء).

ـ ابن الزيات (يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي) :

التشوف إلى رجال التصوف. الرباط : منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط. 1984 [تحقيق : أحمد التوفيق]

- ابن سعيد (علي بن موسى الغرناطي المغربي) :

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض. تطوان : معهد مولاي الحسن، 1958. [تحقيق خوان ڤرنيط خنيس]. ويحمل الكتاب عنوانا آخر : كتاب الجغرافيا. بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970. [تحقيق : إسماعيل العربي].

- ابن السماك (أبو عبد الله محمد) :

الحُلل المَوْشية في ذكر الأخبار المراكشية. الرباط : 1936 [اعتنى بنشره وتصحيحه : سعيد علوش].

- ابن عذاري (أحمد بن محمد المراكشي) :

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (البيان). الأجزاء 1 ـ 4 : بيروت : دار الثقافة، الطبعة الثالثة، 1983. أما الجزء الأخير : قسم الموحدين. بيروت : دار الغرب الاسلامي والدار البيضاء : دار الثقافة، 1985.

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي) :

البداية والنهاية في التاريخ. القاهرة : مطبعة السعادة. 32 ـ 1939. (في 14 جزءا).

- الإدريسي (محمد بن عبد الله الحسني السبتي "الشريف") :

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. مأخوذ من كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (النزهة). ليدن : بريل، 1968 [تحقيق : دوزي ودي كوجي].

- البكري (عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي) :

كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك. باريس : ميزونوف، 1965. [حققه وترجمه للفرنسية : دوسلان].

ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله) :

معجم البلدان. بيروت : دار صادر 1977. (في خمسة أجزاء).

ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم) :

الروض المعطار في أخبار الأقطار. بيروت : مكتبة لبنان، 1975، [تحقيق : إحسان عباس].

ـ الدمشقي (أبو عبد الله محمد بن أبي طالب) :

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. ليبسك، 1923.

ـ الزهري (محمد بن أبي بكر الأندلسي) :

كتاب الجعرافية. بورسعيد ـ مصر : مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ. وكان محققه محمد حاج صادق قد أصدره في :

Bulletin d'etudes orientales, T. XXI, 1968.

ـ السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله التنبكتي) :

تاريخ السودان. أنجي : بريدن، 1898.

[حققه وترجمه للفرنسية : هوداس وبنوه].

ـ السوسي (محمد المختار) :

المعسول. الدار البيضاء، 1961. الجزء 11.

ـ الشنقيطي (أحمد بن الأمين الصحراوي) :

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (الوسيط). القاهرة : مطبعة السنة المحمدية، 1958.

ـ العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله) :

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : الأبواب 8 ـ 14. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1988 [تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد].

- كعت محمود :

تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (تاريخ الفتاش). أنجي : بريدن. 1913. [حققه وترجمه للفرنسية : هوداس ودولافوس].

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد) :

كتاب رياض النفوس. بيروت : دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية، 1982. [تحقيق : بشير البكوش]. والطبعة الأولى : القاهرة، 1951. [تحقيق : حسين مؤنس].

- المراكشي (عبد الواحد بن علي التميمي) :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الدار البيضاء : دار الكتاب، الطبعة السابعة، 1978. [ضبطه وصحح وعلق حواشيه : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي].

- مجهول :

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. الدار البيضاء : دار النشر المغربية، 1985. [حققه : سعد زغلول عبد الحميد].

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء : دار الكتاب، في تسعة أجزاء، تختلف تواريخ طبعها فيما بين 1954 و1956.

- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي) :

وصف إفريقيا. بيروت : دار الغرب الاسلامي، طبعة ثانية، 1983. [ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر].

- اليحصبي (عياض بن موسى السبتي) :

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. بيروت : 1965. [تحقيق أحمد بكير محمود]. (في خمسة أجزاء).

2 . المراجع العربية

ـ بوتشيش (إبراهيم القادري) :

* خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج (حوالي 427هـ) في : أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات 5، جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس، المحمدية المغرب، مطبعة فضالة، 1993. ص. 247 ـ 260.

* المغرب والأندلس في عصر المرابطين. بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993.

ـ الجنحاني (الحبيب) :

المغرب الاسلامي القرن 9 ـ 10م. تونس : الدار التونسية للنشر. 1978.

ـ الجيدي (عمر) :

محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الاسلامي. الدار البيضاء : منشورات عكاظ، 1987.

ـ حسن (إبراهيم حسن) :

انتشار الإسلام في القارة الافريقية. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة. 1984.

ـ دندش (عصمت عبد اللطيف) :

دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي. بيروت : دار الغرب الاسلامي، السلسلة الجامعية. 1988.

- العلوي (هاشم القاسمي) :

أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى. في : مجلة كلية الآداب بفاس، ع. 5، 1989. ص 121 ـ 153.

- القبلي (محمد) :

مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط. الدار البيضاء : دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1987.

- كارنيرو (روبرت) :

نظرية في نشأة الدولة. في : مجلة الفكر العربي، ع. 22، السنة الثالثة، 1981. ص 7 ـ 21. [ترجمة : رضوان السيد].

- كراتشكوفسي (أغناطيوس يوليانوفيتش) :

تاريخ الأدب الجغرافي العربي. بيروت : دار الغرب الاسلامي، ط 2، 1987. [نقله عن الروسية : صلاح الدين عثمان هاشم].

- كول (ماك)

الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة. الدار البيضاء : دار الثقافة، 1395هـ. [تعريب وتعليق : محمد الحمداوي].

- مجموعة من الباحثين :

إفريقيا والثقافة العربية الاسلامية. الرباط : منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الايسيسكو). 1987.

- مجموعة من الباحثين :

ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة. فاس : وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، 1980. (في ثلاثة أجزاء).

- محمود (حسن أحمد) :

الاسلام والثقافة العربية في إفريقيا. القاهرة : دار الفكر العربي، طبعة ثالثة، 1986.

3 . المراجع الأعجمية :

- BALANDIER, Georges :

  - Anthropologie politique, Paris, PUF, 3e ed. revue, 1978.

- BATHILY, Abdoulay :

  - la légende du Wagadou, Texte Soninké de Malamine Tandyan. B. IFAN B, T, XXIX, n° 1 - 2, 1967, PP. 135-149.

- BAUMANN et WESTERMAN :

  - les peuples et les civilisatons de l'Afrique, Paris, Payot, 1984.

- COLLECTIF :

  - Histoire Générale de l'Afrique, Paris, UNESCO/NEA, vol.III, ch. 11-14,1990.

- CORNOVIN, Robert :

  - Histoire de l'Afrique des origines au XVIe siècle, Paris, Payot, 1967.

- COULON, Christian :

  - Les Musulmans et le pouvoir en Afrique Noire, religion et contre culture. Paris, Karthala, 1983.

- CUOQ, Joseph :

  - Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIe siècle, Paris, librairie orientaliste Paul Geuthner, 1984.

  - Recueil des Sources Arabes Concernant l'Afrique Occidentale du VIII au XVIe siècle (BILAD Al-SUDAN), Paris, CNRS, 2 éd., 1985.

- DELAFOSSE, Maurice :

- Haut - Sénégal-Niger, Paris, Maisonneuve et Larose 1972, 3. Vol.

- DEVISSE, Jean :

- Routes de commerces et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la méditerannée, un essai sur le commerce Africain médiéval du XIe au XVIe siècle, in Revue d'histoire économique et sociales, L, 1-2, 1972, PP: 42-73 et 357-397.

- DEVISSE, J. DENIS, R. ROBERT, S :

- TEGDAOUST I, Recherches sur Aoudagost, Paris, A.M.G. 1970.

- HAMET, Ismael :

- Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise, Paris, 1911.

- LACHAPELLE, E. (De) :

- Esquise d'une histoire du Sahara occidental, Hesperis, T. XI, 1930, PP: 35-95.

- MORAES Farais, F.F. (De)

- The Almoravids : some questions concerning characters of the movement during its period of closed contact with the western Sudan, B. IFAN B., XXIX, 1967, PP: 794-917.

-MAUNY, Raymond :

- Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen-âge, Mem. de l'IFAN. B. N° 61, Dakar, 1961.

- Les Siècles Obscurs de l'Afrique Noire, Paris, Fayard, 1970.

- MONTEIL, Vincent :

- l'Islam Noir, Paris, Le Seuil, 1974.

- NIANE, Djebril Tamsir :

- le Soudan Occidental au temps des grands empires XIe -XVIe siècles, Paris, Présence Africaine, 1975.

- NICOLAS, Guy :

- Dynamique de l'Islam au sud du sahara, Paris, Publications orientalistes de France, 1981.

-POLET, Jean :

- Tegdaoust IV, fouille d'un quartier de Tegdaoust, Paris recherches sur les civilisations, 1985.

- TRIAUD, Jean Louis :

- Islam et Sociétés Soudanaise au Moyen-âge, Etude historique, Paris, Ouagadougou, recherches voltaïque. N° 16, 1973.

فهـــرس عــــام

الفصـــل الثالـــث



ROYAUME DU MAROC
Université Mohammed V - Souissi
Publications de l'Institut des Etudes
Africaines - Rabat

Série : Etudes (3)

LE ROYAUME DE GHANA

ET

LE MOUVEMENT ALMORAVIDE

Ahmed CHOKRI
Institut des Etudes Africaines

1997



Royaume du Maroc
Université Mohammed V - Souissi
Rabat

Série : Etudes (3)

LE ROYAUME DE GHANA ET LE MOUVEMENT ALMORAVIDE

Ahmed CHOKRI
Institut des Etudes Africaines

Publications de l'Institut des Etudes Africaines

1997